سمية عبد الحليم عويس



غريب فى المدينة

قصص

غريب فى المدينة

قصة نفس أضناها الزمن !!

سمية عبد الحليم عويس

الكتاب : غريب فى المدينة

المؤلف : سمية عبد الحليم عويس

النوع : قصص

الصفحات :١١٢ صفحة

المقاس : ١٤ × ١٩سم

الطبعة : الأولى ـــ القاهرة ٢٠١١

الغلاف : إهداء من الشاعر حسن حامد

المراجعة اللغوية : بوب بروف

رقم الإيداع : 2011/3037

الترقيم الدولى : 2-702-374-977-978

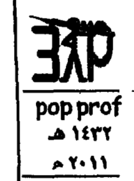
الناشر : دار بوب بروفيشنال برس ـــ ثرى بى

pop professional press (3p)

بالتعاون مع دار الإسلام للطباعة والنشر

ت : ٠١٠١٧٨٩٨٢٧ ـــ ٠١٢٥٠٥٨٦٥٥

popprof@ymail.com



الإهداء

يا ليلُ من علّم الأطيار قصتنا

وكيف تدري الصبا أنّا أحباءُ

إلى حبة فؤادي ومن سطّر على شغاف قلبي حروفه ..

إلى زوجي الحبيب .. الدكتور أحمد عبد السلام أبو الفضل ..

حفظه الله ورعاه ونفع به.

إلى حبي الذي ندّى الزّهر الذابل من خمائل الماضي ..

وأنبت في روض الحاضر زهوراً ندية مخضلة بالأمل والحياة ..

إليه أقدم ما أوحى به إليَّ...

سمية

غريب فى المدينة

موال الغربة

ياغربة رسيتا .. طال الطريق بينا

دى السكة نساية .. تايهة ف خطاوينا

مال الطريق ماله .. جرّحنا مواله

ولاسابنا يوم نغزل .. سكة فى امانينا

***

شجر اللى طارح .. أحزان ونيل سارح

على بكره وامبارح .. طب فين موديتا ؟

لو بكرة فات وعده .. جاى فى الطريق بعده

بكره اللى بتواعده .. ها يخدنا للمينا

***

ياغربة رسيتا .. طال الطريق بينا

دى السكة نساية .. تايهة ف خطاوينا

تايهة فى خطاوينا

***

(١)

حين ننظر بأعيننا إلى الوراء ، وتتذكر ذاكرتنا ما سلف من أيام بحلوها ومرها ، نرى أننا عشنا كأحسن ما يكون ، وإن لم تبلغ نفوسنا جُل مناها وأقصى غاياتها فى هذه الحياة التى تأخذ وتسلب أكثر مما تعطى وتمنح .

إننا ـ برغم شقاء نفوسنا ـ نفرح بأشياء بسيطة كما يفرح الصغار وتحبو بداخلنا بذور الحياة كلما بزغت شمس نهارنا وشممنا بأنوفنا أنسام الهواء .

ربما كانت نزعتى للتفاؤل ورغبتى العارمة فى السعادة ، تجعلنى أفكر بهذا الأسلوب وأنحو هذاالنهج ، رغم ما مررتُ به من عثرات ، وما تكبدته من مشاق ، وتحملته من آلام جسدية ونفسية ، لكننى إنسان أحب الحياة ، ومازال يحبها ويكره فراقها، كلما مرت بى السنون وتمادى بى العمر وطال بى الأجل.

أنا الآن فى الأربعين ـ عمر الرشد ـ وكلما تذكرت مامر بى خلال سنواتى الفائتة ، منذ بدأت أعى وأعقل أمور الحياة وسنن المعيشة ، أدركت كم هى تافهة هذى الحياة ، كم هى حقيرة ، وكم هى مبتذلة ، غرورة تذل من أعزها وتعز من أذلها ، تصغر فى عين الكبير وتكبر فى عين الصغير ، وفداءً روحى لمن قال :

مع حسنها غدارة فانية ••• ماأحسن الدنيا لكنها

وأحسن من قال :

حسّنت ظنك بالأيام إذ حسُنت ••• ولم تخف سوء مايأتى به القدرُ

وسالمتك الليالى فاغتررت بها ••• وعند صفو الليالى يحدث الكدرُ

تعود ذاكرتى إلى أيامى الخوالى حين كنت خالى البال خلِيّ القلب من الهموم ومشاغل العيش ، بين أبوين متحابين فى قرية قريبة من دمنهور ، كان أبى مزارعا بالأجرة ، ثم ورث قيراطين من خاله الغنى فأصبح من الملاك البسطاء ، وتذوقنا بعد الفقر وشظف

العيش قليلا من بسطة الرزق ، واستطاع مع التدبير المحكم أن يجمع مالا ، فاشترى قيراطين آخرين ، ثم بقرة وحمارا وساعدته أمى على أمور المعيشة بماكانت تنتجه من دواجن وبيض ومنسوجات يدوية تبيعها لأهل القرية مقابل بعض الجنيهات .

وعشت فى كنفيهما ولدا وحيدا مدللا ، غدوت إلى الكتاب صغيرا فى الخامسة ، ثم إلى المدرسة الابتدائية القريبة من دارنا فى السابعة وظللت أحيا بينهما وقلبى يشعر بالأمان إلى الحياة والدفء فى أحضان الأبوة ، والحنان فى صدر الأمومة ، حتى بلغت الثالثة عشرة.

حين أنهيت المرحلة الابتدائية ، فإذا بأبى يشعر بوعكة صحية ألزمته الفراش ، وإذا بتلك الوعكة تمتد وتتحول إلى حالة ملازمة له ، حيث تحول من مريض بمرض الريف العادى (البلهاريسيا) إلى مريض بمرض العصر (الكبد) ، فقد أصيب بالفشل الكبدى ، وبعد مدة ليست بالقصيرة أصيب بالفشل الكلوى ، واستنزف مرضه ثروتنا الصغيرة ، فقدنا قيراطين بعد أن كانوا أربعة ، وبيعت بهيمتينا.

وأخذت أمى تحاول زيادة إنتاجها مع ازدياد مرض والدى ، حتى سبق مرض والدى فى سباقهما المحموم ، وجاءت النهاية مساء يوم مشئوم انتهت فيه سعادتى ، بين أبوىّ الحبيبين ، حيث خطف الموت والدى من بيننا ، وذبلت أوراق أشجار حديقة المنزل الذى بناه والدى بعرق جبينه ، وأسس فيه فرحتنا بجوار أمى سنوات طويلة .

كل ذلك زال حين انطفأت شمسه ، ورجعت من دفنه بعد أن واروه التراب وقلبى ينزف دما على هذا الأب الذى ماطفق يحسن إلى طوال حياتى معه، ولسان حالى معه كما قال القائل :

إنى عهدتك بحرا لا حدود له عطفا وحباوغفرانا وإحسانا

إنى وقد حلّ زلزال بأعمدتى ماكنت اقوى فثار القلبُ بركانا

وهاجنى إن رايت الطود منهدما يرجو الحماية وهو الدهر مأوانا

وياليت شعرى كيف أبكيه أمام أمى وهى التى تبكيه ليل نهار ، إنها تحتاج لمن يغذوها بكؤوس الصبر بعد أن أترعت بكؤوس اللوعة والفراق ، ففارقت حبيب عمرها الذى مارأت عينا قلبها مثله :

تراع إذا الجنائز قابلتنا ويحزننا بكاء الباكيات

***

رايت المرء تأكله الليالى كأكل الأرض ساقطة الحديد

وما تبقى المنية حين تأتى على نفس ابن آدم من مزيد

وعرفت بإحساس قلبى أننى لن أجد الراحة بعده ، هكذا حدثنى قلبى وأسرّت لى نفسى ، وبت ليالى طويلة فى هم طويل ، وحزن ليس له مثيل ، حتى ترحمت على الذى افترش التراب ، ووددت لو كنت مكانه ، فى رَوح وراحة ومستراح ، لا أعانى لوعات الفراق ، ولا أكابد مرارة الأشواق ، ولا أرى حال أمى وماهى فيه من هم وكبَد وحزن وخوف مما تطويه لنا صفحات الأيام ، وما تخبئه لنا أوراق المستقبل.

***

(٢)

دخلت المرحلة الإعدادية أثناء مرض والدى ، مات وأنا فى السنة النهائية منها ، ولم أكن قد شددت عودى بعد ، بل كنت فى سن أحوج ما أكون فيها إليه ، فالولد يحتاج لوالده وهو فى مقتبل سن الشباب أكثر من احتياجه لوالدته ، لكنه كان قد علمنى أن أكون صلبا فى الحياة كصلابة عود الذرة أمام الرياح ، رغم ضعف بنيته وهشاشة ورقه ، علمنى أن أكون رجلا لأمى فى غيابه ، بمعنى الرعاية والحنان والخدمة ، لكنه ما أخبرنى يوما أنه سيتركنى هكذا فجأة وأنا فى مقتبل الحياة ، فى أشد الاحتياج لأب يسند ظهرى ويبنى بنيانى ويقوى عودى فى مواجهة الأزمات التى لا تخلومنها حياة أمثالنا ، من الذين يواجهون الحياة بمتاعبها دون عون أو ثروة أو قوة أو جاه ، بل تركنى لأواجه قسوة المعيشة والناس وغدر الأيام وفُجاءة الابتلاءات فى زمن عز فيه الصاحب ، وشحّ فيه الخليل والمعين ، وندر فيه الرفيق والأنيس ، بل كثرت فيه الدنيا بالأفاقين والغدارين والمكارين والمنافقين .

ذهب الوفاءُ ذهابَ أمس الغارب	فالناس بين مخاتِل وموارِب
يفشون بينهم المودة والصفا	وقلوبهم محشوة بعــــقارب

***

لم يبق فى الناس إلا التيهُ والبذخُ	وكلهم من فعال الخير منسلخ
إن أبرموا نقضوا أو اقسموا حنثوا	أو عاهدوا نكثوا أو عاقلوا فسخوا

***

ومرت أيامى مع أمى متشابهة ، تدنو إلى الشظف ، فقد رفضتْ أمى أن تبيع شبرا من قيراطىّ لتحفظهما لى لغوائل الزمان ، فواصلت جهادها فى عملها المنزلى وعملها الذى يدر علينا بعض المال ثم تعلمت الحياكة لتحيك أثواب الفلاحات ، حتى تضاعف الرزق بجوار إيجار القيراطين .

وكان ابن عم لها يأتينا ليطمئن علينا مع زوجته كل جمعة ، ويشترى منها بعض الدواجن والبيض حتى يخفف عنا عناء العيش ، وعلم أخوها بهذا الأمر فثار ثورة كبرى لغيرته من ابن عمها الذى يفوقه فى كل شىء ، وادعى أنه لا يرض بأن يتقول عليها الناس الأقاويل ، ومنع ابن عمها من دخول المنزل عندنا ، ورضخنا جميعا لأمره ، رغم أنه - وهوخالى الوحيد المقتدر - لا يقدم لنا أية مساعدة حتى نتجنب المشكلات والأقاويل ، وباتت زوجة ابن عم أمى الشهم الكريم تزورنا وحدها ، تساعدنا بما تقدر عليه بإيعاز من زوجها.

لكن القدر أراد لنا خاتمة سوداء فى هذا القرية ، إذ مرضت والدتى مرضا شديدا استدعى أن ينقلها ابن عمها مع زوجته بسيارته إلى مشفى فى دمنهور ، وحين علم أخوها بذلك أتى خلفنا إلى دمنهور ، وكال لابن عمها كيلا شديدا ، واتهمه بأنه يسعى خلف أمى فى كل مكان ، وبدأ يقلب زوجته عليه ويشككها فى سلوكه ، وصرنا أحدوثة المشفى .

ظلت أمى بعد هذه الحادثة تبكى حظها أياما طويلة بعد وفاة زوجها ، فى تعبها فى الحياة وشقائها بأخيها الذى عارض زواجها من أبى قبل ذلك ، وها هو يسعى فى التشنيع عليها دون جريرة الآن .

كانت تبكى دون توقف ، وأعرضت عن الطعام والحديث مع الناس بل وامتنعت جفونها عن النوم ، وحاولتُ معها كثيرا إخراجها من هذه الحال فتأبتْ علىّ ، حتى هزلتْ هزالا شديدا ، وصرت شريكها فى الحزن والبكاء ، وهى مع كل هذا تعمل عملا مستميتا حتى تحفظ ماء وجوهنا من ذل السؤال .

واستمر أخوها الذى لم أشعر يوما أنه خالى يزورنا بين الفينة والأخرى ، ليأكل عندنا ما يجده ويبتز منها العطاء ، مع أنه مقتدر كما أسلفت ، لكنه طامع فى كل شىء ، يريد أن يجمع الدنيا كلها فى حجره ، كما أنه مقتنع بأن أبى لم يكن يستحق شبرا من

الأرض لأنه ـ كما يقول ـ كان مجرد مزارع " أجرى " ، فمن أين حصل على ثمن القراريط ؟ ، فلا شك أنه مدلس وسارق ونصاب .
وكانت أمى تدافع عن أبى دفاعا مستميتا أمام تهم أخيها الظالم إلى أن كان يوم جاءنا صباحا ، وهو يزبد ويرغى ويدعى بأنه رأى أمى ذاهبة إلى دمنهور مع ابن عم أمى بمفردهما ، ولما كان هذا مجرد افتراء دنئ ، فقد أقسمتْ له أمى أعظم الإيمان ، أنها لم تر ذاك الرجل منذ أن كانت بالمشفى ، لكنه لم يصدقها ، وكيف يصدقها وهو أول من يعلم أنه كاذب وأفاق ؟! .
ولما حاولتّ الدفاع عنها ضربنى على وجهى بحذائه ، فشتمته أمى فانهال عليها ضربا حتى نزفت دما من رأسها وفمها وأنفها ، فمشى مسرعا وتركنا نبكى ونولول على حالنا وحظنا معه ومع الحياة .
وبعد يومين من النزف المستمر من فمها ، رحلت عنى وهى فى أحضانى على فراشنا المشترك ، ماتت تلك السيدة التى كانت لى الدنيا بأسرها .
ماتت أمى ، ماتت أمى وأنا فى السادسة عشرة ، تركتنى للعذاب والأسى والوحدة والضياع والقسوة ، ومرت مراسم العزاء وقبله الدفن وأنا فى ذهول عن كل ما يحدث لى ، وأفقت لأجد نفسى فى المشفى بعد عدة أيام من دفنها بجوار أبى فتماسكت وذهبت إليهما أقبل التراب الذى يلامس جسديهما الطاهرين ، وأنتحب شوقا إليهما وحزنا عليهما وخوفا من أهوال الدنيا وأنا فيها وحدى ، أعانى الخوف والفقر والوحدة والحرمان وظلم الناس .
ياليتنى مت قبلهما ، ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا ، بل ياليت أمى لم تلدنى ، ما أبشع الدنيا وما أبشع الموت وما أقساه ! ، وماأظلم الفراق ، نعيش مع أحبابنا حتى إذا ألفناهم وذقنا عسيلتهم واشتهينا وجودهم وأدمناحبهم ، تركونا ورحلوا ونحن مذبوحون بسكين الفراق، أظنهما قد ارتاحا بعد تعب السنين ، فماذا أفعل أنا وحدى ، وحدى ، وحدى ؟ .

دار الزمان بينا .. ضاعت خطاويتا
تايهين فى مطرحنا .. لا عرفنا فين احنا
لا اخترنا يوم دارنا .. ولا حتى مين جارنا
ولا حتى اقدارنا حتى أساميتا
دار الزمان بينا..
عدّوها دى التوهة..
ماشيين بنسأل فين ويا الزمان رايحين
ماشيين يمين وشمال ويامين يرسينا
ماشيين بنسأل فين.. ويّا الزمان رايحين
على فين يودينا
عايشين بنتمنى .. فى النار هوا الجنة
خايفين من الناس وياريته بإيدينا
دار الزمان بينا !

***

(٣)

لم يتركنى خالى القاتل ، بل جاء إلى فى بيتى وأنا بين أحزانى وذكرياتى مع الحبيبين وقال لى :

ـ عليك أن تفكر فى بيع هذا البيت ، لم يعد لك مكوث فى هذه القرية ، فكل أهلها يتحدثون عن شرفك الذى لوثته أمك .

فصرخت فيه:

ـ أمى أشرف النساء وأنت تعلم ذلك ، وكل من يتكلم سوف ألكمه فى وجهه بحذائى ، إن حذاء أمى أنظف وذيل ثوبها أطهر من كل هذه البلدة وسيرتها أنقى من سيرة كل من تُسول له نفسه بالحديث عن سمعتها.

فقام يحاول ضربى وهو يقول :

ـ إنك قليل الحياء مثل أمك .

فأمسكته من يديه بكل قوتى وقلت له :

ـ لن تستطيع أن تظلمنى بعد الآن أيها المتجبر الظلوم الغشوم.

فأخذ يصرخ على باب الدار وينادى خلق الله قائلا :

ـ انجدونى ياناس ، الحقونى ياخلق هوه ، ابن أختى يتعدى على ويريد أن يضربنى لأنى أنصحه وخائف على مصلحته ، يريد أن يكون فاجرا كأبويه .

وتجمع الناس حولنا عند باب الدار ، وأخذ وا يلومون فىّ على عدم احترامى لخالى ، وخالى وسطهم يصرخ ويولول كالنساء ويبكى بالدموع وهو يطالبهم بجلسة رجال يحكمون فى أمرى وينصفونه على أنا الظالم الجبار العقوق قاطع الرحم.

وهكذا خرج من دارى مع الناس على أن ينعقد مجلس رجال فى دار شيخ البلد ليحكموا فى أمرى بحضور العمدة .

وثبتت علىّ تهمة التعدى على خالى بالضرب والتنكيل به ، ومع الأسف لم أستطع حتى الدفاع عن نفسى أمام ذاك الجمع الغفير من الرجال ، فكلما هممت بالحديث المخنوق أسكتتنى

ألسنتهم اللاذعة ، فأنا فى نظرهم إنسان حقير وطفل قليل الأدب عليه أن يحتشم مع خاله ويحترم كلام الكبار .

وحكموا علىّ بأن أبيع دارى وأنتقل من القرية ومن دمنهور بأسرها إلى القاهرة ، إلى أبعد مكان عن والدىّ.

كان من الممكن أن أعارض حتى لا أبيع ملكى ومملكة ذكرياتى وسنوات عمرى الفائتة ، وحتى لا أفارق تربة والدىّ الغاليين ، لكنى أذعنت لحكمهم لأسباب كثيرة ، منها أن أبتعد عن خالى الظالم الذى لن يتركنى فى حالى أبدا ، وحتى أبتعد عن القرية التى بدأ أهلها يلوكون سيرتى وسيرة أمى بسبب خالى الذى شنع عليها واتهمها بأخس التهم ، ووصفها بأحط الصفات ، وسط جمع الرجال الغفير ، وادعى بأنه قتلها ليحمى شرفه وكرامته ، ولهذا لم يبلغ عنه أهل القرية ، لأنه - قانونا - تسبب فى مقتل أخته ، فقد ضربها ضربا أفضى إلى القتل ، ثم قررت الرحيل لأننى لم أعد أتحمل العيش وسط هؤلاء الغيلان ، ولأكمل مسيرة حياتى كما أرادها والدىّ فى بيئة طاهرة نظيفة .

وجمعت بعد ذلك اليوم المشئوم شمل نفسى ، وبعت القيراطين والمنزل بما فيه من أثاث متواضع لأحد الشرفاء المعدودين فى قرية الظالمين ، وأخذت بعض الأشياء الباقية من أبى وأمى فى حقيبة سفرى مع ملابسى البسيطة وكتبى ودفاترى ، ثم تجهزت للسفر ليلة الخميس ، وزرت قبر والدىّ اللذين ماعرفت الهم العظيم والظلم البهيم إلا بفقدهما الواحد تلو الآخر ، وفى الصباح سافرت مع مالى وحاجاتى إلى العاصمة تشيعنى روحا اثنين ما أحببت غيرهما ، لا يستطيعان توديعى على المحطة (حبسهما حابس الأجساد) ، وأنا أذرف الدمع على أحلى أيام عشتها وعلى قهرى وانكسارى وذلى ، وقد أقبل خالى علىّ قبل أن أركب القطار يقذفنى بأبشع الشتائم ويصب علىّ اللعنات كأى مجرم يساق إلى حتفه ، لأنى رفضت أن أبيع له ــ هو بالذات ــ ماكنت أمتلكه من دار وأرض صغيرة كانت تقوتنى يوما ووالدىّ المكافحين .

وركبت القطار دون أن أنظر للخلف من نافذته ، فلم يعد لي في تلك الأرض شيء سوى جدثين ستحل روحا صاحبيهما معي أينما حللت ، وسترفرفان فوق هامتي أينما نزلت .

وداعا أيها الماضي بكل ما فيك من سنوات الطفولة والصبا ، بكل مافيك من أفراح وأتراح وبسمات وجراح ، وداعا إلى غير عودة إلاإذا شاء لي الله غير ذلك ، فانما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ، { قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شيء عِلْمًا ۚ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ} (٨٩) الأعراف .

***

(٤)

نولد مرات عديدة ، حين تلدنا أمهاتنا ونخرج إلى المهد ، وحين ندخل إلى قاعات الدراسة ونُفطم عن أحضان البيوت ، وحين نبلغ سنوات الشباب البكر ونتذوق حلاوة التجارب ومتعة الحب الأول ، وحين ندخل إلى المجتمع الكبير بقلوبنا الصغيرة ، وتدوسنا عجلات الحياة بآلامها القاتلة ، فتتعلم قلوبنا الصغيرة قسوة الدنيا ومرارة الأيام وغدرات الناس ، وتحتسى كؤوس الردى فى مزارع الهلاك ، ثم نولد ـــ وياللعجب ـــ فى مراتع الفناء صناديق الموت ، فساعتها نولد بذورا مسنة ـ لكنها تَشِبُّ ـ فى بساتين الآخرة .

***

وحين دخلت العاصمة فوجئت بمولد آخر لى على درجات الغربة بين قوم عنى غرباء ، غريبة عنى وجوههم ، جديدة علىّ ألسنتهم ، كبيرة هى مدينتهم واسعة علىّ دنياهم ، لكنى خطوت أولى خطواتى متوكلا على الخالق بعد أن خذلنى المخلوقون ، عازما على الفلاح بعد أن غُبنتُ فى قريتى ، وطالنى الأذى ، وهزمتنى الجراح ، فاستأجرت غرفة صغيرة فوق بناية فى وسط البلد ، وطاوعنى قلبى على نسيان الماضى بعد أن استفادت نفسى من دروسه ، وجعلت صورة والدىّ المكافحين ـــ رحمهما الله ـــ أمامى على الجدار الذى غير لونه مسير الأيام وتعاقب المستأجرين ، فأحاله من البياض إلى الاصفرار ، وجعلت جُلّ همتى منصرفا إلى دراستى الثانوية ، بعد أن وضعت مالدىّ من مال بسيط فى البريد ، لأعيش على ريعه الشهرى ، حتى أجد عملا مناسبا لظروف دراستى ، فقد نشأت بين أبوين يقدسان العمل ويحترمان سنن الحياة ، فإن الدنيا لا تعطى إلا لمن يمد يده إليها ، ويقتنص حقه منها بسياسة ومهارة وحنكة وحيلة وصبر .

وتمر الأيام وأنا أستند إلى عملى المتواضع فى مطبعة بالفجالة وأذاكر دروسى فى غرفتى الصغيرة ، وتعودت تدبير أمور

معيشتى ، فكنت أطهو طعامى بعد عودتى من عملى فى العاشرة مساء ، ثم أذاكر حتى الثانية صباحا ، وبعدها أخلد للنوم العميق بعيدا عن تعقيدات الحياة التى لا أعرفها ولا أحبها، وفى الصباح الباكر أغدو إلى مدرستى ، ثم أعود فى الظهيرة إلى مسكنى بشارع ثروت لأستريح سويعة لأواصل يومى فى المطبعة ، وهكذا أردت أن أكون شيئا ، فقلت لنفسى فى عزيمة:

- أكون أو لا أكون ، ماالمشكلة أن تهدمنى الدنيا بمعاول الظلم ويعضنى الزمان بنابه فأقوم - رغم تأوهى - من جديد وأنا أردد :

تنكر لى دهــرى ولم يدرِ اننى　　　اعِزُّ واحداثُ الزمـــان تهـونُ

فبات يرينى الخطب كيف اعتداؤه　　　وبت أريه الصبر كيف يكونُ

***

اشد الناس فى الدنـيا عنـاء　　　كريم مجـدُه مجـدّ اثيلُ

يحب مكارم الأخـــلاق مثلى　　　وليس له إلى الدنـيا سبيلُ

***

وليس معنى انشغالى التام بالعمل والدراسة أن قلبى لم يدق يوما ولم تشغله غادة أو ناهد كاعب ، بل لقد أحببت زميلة لى فى المطبعة وأنا فى السنة الثانية بكلية الزراعة ، وقامت بيننا علاقة شريفة طاهرة ، لكن تلك العلاقة فسدت حين أطمعتها نفسها بالزواج من رجل موسر يوفر لها مسكنا واسعا ، وفراشا وطيئا لينا ، وطعاما لم تعرفه فى بيت أهلها البسطاء ، فتركتنى حين دق بابها ذاك الغنى دون أن تودعنى ، إلا أنها رحمتنى فقالت لى :

- كل شىء قسمة ونصيب وإحنا مش لبعض ، وأنت تستاهل أحسن منى .

ولم أنهار ولم أتضعضع ، بل قلت فعلا ، كل شىء قسمة ونصيب ، وأنا فعلا أستاهل أحسن منها عقلا وقلبا وجوهرا وأصلا ومعدنا.

ومرت شهور أخرى قاربت بعدها على التخرج ، فالتقيت صدفة برفيقة دربى الحقيقية ، لتكتب صفحات سعدى فى هذه الحياة ، ولتبدأ الدنيا تفتح لى ذراعيها ، ولتنهال علىّ جوائز السماء التى لا ينالها إلا الشرفاء الصابرون . لكنى كنت واهما .

***

(٥)

مشت سفينة أيامى إلى أن وصلتُ إلى السنة النهائية فى كليتى وبدأت أتنسم بعض هواء الراحة وأستنشق أملا جديدا بدأ يحبو نحوى ، ألا وهو أمل التخرج ، فالتخرج وبداية الحياة العملية بالنسبة لأمثالى طوق نجاة فى بحر حياتنا المعتم الهائج ، لأن الحياة صعبة المراس على من يئنون تحت وطأة الفقر والحاجة ، وهم مع شدة العوز يحلمون بالاستقرار والمال ورغد العيش ، يتعطشون لصدر حنون ومنزل وارف بظلال الرحمة والأمان وأصوات صبية يتضاغون عند أقدام والدهم ، يرجون منه حاجات قد تبدو كبيرة فى أعينهم لكنها صغيرة فى واقع الحياة .

والأب مع هذا يريد أن يبذل لهم دمه وروحه بعد كل ما عاناه من أعاصير الحياة وأنوائها، وتخرجت بالفعل وبدأت أتفرغ لحياتى العملية في المطبعة ، مدخرا نصف أجرى الذى زاد بتفرغي للعمل ، حتى أبدأ به مشروعا صغيرا خاصا بى ، مستندا إلى همتى العالية وشغفى بالصعود وإعجابى بكبار الهمم الذين يأخذون من الحياة بقدر ما يريدون ، لا لأنها كريمة معهم ، ولكن لأنهم عرفوا بذكائهم ودأبهم كيف يختطفون منها الأحلام ، لتغدو واقعا ملموسا وأرضا صلبة ، يعيشون عليها متنعمين بما جنوه من ثمار شقائهم وكفاحهم المستميت وصبرهم فى مواجهة العقبات أيا كانت.

وفى خلال تلك الأيام تعرفت إلى ابنة صاحب المطبعة ، وكنت قد أصبحت مديرا لأعماله ، ونشأت بيننا مشاعر طيبة وتفاهم متبادل ، لكنه لم يصل إلى درجة العشق والوله ، ومع الأيام أصبحنا نتحدث كثيرا فى أمور الحياة العامة وأمورنا الخاصة ، حتى لاحظ والدها علامات تلك العلاقة فصارحته برغبتى فى الزواج من ابنته ، رغم إحساسى الداخلى بتسرعى ، لأننى كنت فى حاجة إلى معرفتها أكثر من ذلك ، ولأننى صدمت فى حبى الأول ، فخفت أن أكون قد تسرعت أو غلبنى قلبى على أمرى ،

والحب بعد هذا و ذاك - فى رأيى - مجرد مخلوق ينمو بالتفاهم أكثر مما ينمو بالإعجاب المبدئى ، وإن كان الإعجاب هو أول خطوات الحب .

وهكذا تمت الزيجة فى حفل عائلى بسيط ، وسكنت معها فى شقة اشتراها لنا والدها ، ومع مرور الأيام الأولى بدأت ألاحظ من تصرفاتها بعض الهوج وعدم الاتزان ، كما استشعرت ضيق صدرها لأتفه الأسباب ، وعدم تحملها لطبيعة حياتى وأنا شاب فى مقتبل الطريق .

وصبرت على كل هذا ، فإننى أحب الصبر حبا حقيقيا ، فلست أفتعله ، فأنا موقن بأنه سفينتى إلى النجاة ، وبأنه مفتاح الفرج ، وبأن مع العسر يسرا ، وبأن إصلاح النفوس الحرونة لا يأتى بين يوم وليلة ، بل هو طريق طويل شاق .

فحاولت التمشى مع طباعها دون أن أعطيها الفرصة لتهلك نفسى وتحيط حياتى بالديون ، فالديون سبيل أكيد للكساد ، كما أحطها بكل حب ورعاية ، ظنا منى أن حبى لها ربما عوضها عن عدم قدرتى على إجابة وتلبية كل رغباتها المادية ، ولأننى قدرت صغر سنها وعدم قدرتهاعلى تفهم غالب أمور الحياة ، فقد كانت إبنة مدللة ، إذا اشتهت وجدت ، وإذا طلبت فكأنما تقول للشئ كن فيكون.

وحملت طفلتى الكبيرة بطفلى الصغير فازدادت رعايتى لها ولحملها ، وزدت ارتباطا بها وخوفا على فقدها ، بل فقدهما ، فتحايلت على دلالها بكثير من الحنان والصبر ، وحاولت زيادة دخلى بوظيفة أخرى ، فكنت لا أرجع إلى البيت إلا مساء ، وأنا فى حالة يرثى لها من الإعياء والإنهاك ، لأجدها لم تطبخ طعاما ولم تنظف دارا وكل همها التأوه والتدلل والجزع والشكوى من سوء الحال وضيق المنزل وقلة المال والوحدة والبعد عن الأهل وانشغالى عنه ، وهكذا كنت فى تعب دائب نهارا وهم طويل ليلا ، حتى شعرت أن صبرى بدأ ينفد واحتمالى بدأ فى الزوال وحبى لها

أخذ فى الاضمحلال ، وأيقنت أننى أسأت التقدير منذ بداية هذا التعارف الذى لم أجن منه إلا التعب المادى والمعنوى .
مكثت على هذه الحال سنتين فقط وهما قصيرتان فى عمر الزمان ، لكنهما كانتا كدهر طويل فى نفسى لشدة ماعانيت فيهما من هذه المرأة التى لم أحلم معها بالكثير ، اللهم إلا بيت دافئ وولد صالح وامرأة محبة ، وذات يوم وبعد أن ولدت ولدا يشبهها كثيرا أصابنى إرهاق وتعب شديد فى العمل ، فرجعت إلى المنزل فى غير وقت رجوعى ، ودخلت لأفاجأ ببكاء وليدى الصغير ، ولم يكن قد بلغ من العمر السنة الأولى ، وإذا بها نائمة فى فراشى مع رجل آخر ، وانتابنى ذهول شديد ، فوقفت مكانى وأنا مكبل بالصمت من شدة الصدمة ، وفى لحظات صمتى التى حسبتها دهرا لهول مارأيت ولبشاعة ماعانيت ، أسرع ذاك الرجل الفاجر بالهرب وهو يلملم ثيابه المتناثرة فى أنحاء الغرفة وعلى مقعدى الأثير الذى طالما جلست عليه وأنا أحتضنها بين ذراعى ، وقامت وهى تلملم شعف شعرها وتكسو ما انحل من ثيابها حول جسدها القذر ، وحين أفقت من ذهولى خرجت من الغرفة ، وإنا أحمل الصغير وأهدئ من روعه وعقلى يكاد ينفجر ، وطلبت والدها بالهاتف وقلت له :
ـ إما أن تأتى فورا ، وإما ستجد ابنتك أمامك فى المطبعة فى حالة تود لو مت قبل أن تراها عليها .
وبالفعل أتى والدها على عجل ، فرويت له وأنا أحاول أن أتماسك حتى لا أفقد ثباتى الذى تعلمته من مواجهة أشد المواقف صعوبة ، فلما سمع ما تلوته عليه ما كان منه إلا أن دخل إلى ابنته وأتى بها مكبلة فى خزيها وأخذ يستخبرها عن صدق ما أقول ، فأكبت على قدميه تقبلهما وهى ترجوه أن يسترها ، وهنا أردت أن أخفف من حدة وشدة وهول الموقف على الرجل الذى أحسن إلى كثيرا ، فأمرتها أن تدخل إلى غرفتها ، ثم وعدت الرجل بأن ما حدث من ابنته ، سيظل ما حيينا سرا بينى وبينه ،

حفاظا على شرفه وشرفى ، وحفاظا على ولدى الذى لم يبزح طور البراءة ، ورميت عليها يمين الطلاق أمامه وقلت له :

- إن ولدى لن يبرح أحضان والده ، ماقدّر الله له أن يعيش على هذه الأرض ، وأن ابنته لن تبيت مع ولدها ليلة بعد الآن .

وهنا ساورنى شكى :

- أيكون هذا الولد ولدى ؟ ، لكن حين نظرت إلى وجهه ورأيت شعورى وحبى يتجه إليه أفقت من شكوكى ، وسلمت أمرى لله ، ثم لممت أشيائى وأشياء ولدى وانصرفت من هذه الشقة اللعينة التى ماوسعت قلبى ومشاعرى الرحيمة يوما ما ، إلى شقتى القديمة التى - ولله الحمد - لم أكن قد تركتها ، وبدأت فيها مرحلة جديدة مع ولدى الضعيف ، متناسيا وجود جنس المرأة فى هذه الحياة ، بعد ان صدم قلبى مرتين ، مرة بسكين الغدر ومرة بطوفان الخيانة .

***

(٦)

كانت الشهور التى مرت بعد تلك الخيانة وما سميتها فى تاريخ حياتى (الخيانة العظمى) شهورا سوداء ، عانيت فيها كثيرا من ظلمات شتى ، فبين ظلمة الشك فى كل الناس ، وبين ظلمة الإحساس بالظلم ، وبين ظلمة أخرى قد تتعجب حين تعرفها ، ألا وهى إحساسى الفادح بخسارتى ، للمعركة التى كنت طرفا فيها مره أخرى أو كل إحساس بالهزيمة النكراء فى جولة أخرى من جولات حياتى ، منذ بدأت أعى معنى الخسارة ، حين مرض والدى ثم توفى وتبعته أمى دون أن يترك لى سندا فى هذه الدنيا التى يأكل فيها الناس بعضهم البعض كما تأكل الأسماك الكبرى الأسماك الصغرى فى بحار الظلمات أو ظلمات البحار .

ولكنى كنت أحاول التماسك من أجل ولدى ، فلا ذنب له فى كل هذا ، وكنت أتمثل القوة بينما أنا فى أشد حالات الضعف ، وازداد تعلق ولدى بى كما ازداد تعلقى به ، ومع مرور سنوات عمره أصبحنا كتوأمين ، ودخل ثمرة فؤادى فصل الدراسة ، وقلبى ما بين فرح شديد به وما بين لهفة كبيرة عليه ، لمجرد أنه سيتركنى وسيغادر منزلنا البسيط سويعات قليلة ، وكنت قد تركت العمل الإضافى بعد تطليقى لأمه حتى أتفرغ له ولتربيته تربية سوية وحتى أحنو عليه حنانا يعوضه عن فقدانه لحنان الأم التى أحمد الله أنها تركته وهو صغير ، حتى لا يتأثر بسوء أخلاقها وهو فى مرحلة النمو النفسى والعقلى والأدبى .

لكنى فجعت فى ولدى ذات يوم حين ذهبت لإحضاره من المدرسة فلم أجده فى انتظارى كعادته ، وبحثت عنه فى كل مكان يحتمل أن أجده فيه فلم أجده ، فأشار علىّ صديق لى أن أسأل عنه عند والدته ، طليقتى ، وكنت قد تركت العمل عند والدها منذ تركتها ورغم أنى تعبت كثيرا حتى وجدت عملا آخر ، إلا أنى تحملت أياما عجافا ، حفاظا على نفسى من مواجهة هذا الرجل الذى أحسن إلىّ كثيرا وأساءت إلى ابنته كثيرا ، وذهبت بالفعل

إلى المطبعة وقابلت الرجل ، وانا فى خجل شديد منه ، وأخبرته بأنى ذهبت إلى المدرسة فلم أجد ولدى ، وتوقعت أن أمه قد أخذته لسبب ما .

فذهب معى الرجل إلى منزله وانتظرته بالأسفل ، فلم أشأ أن أقابل تلك المرأة مرة أخرى ، فإذا به ينزل إلى بعد دقائق معدودة ليخبرنى بأن الولد عند ابنته ، وبأنها وأمها ترفضان تسليمه إلىّ فذهلت لرده علىّ من ناحية ، واندهشت لتغير تعبيرات وجهه وهو يحدثنى من ناحية أخرى أن الرجل الذى صعد ملاكا نزل شيطانا فقلت له:

- تعلم يا سيدى أننى مدين لك بإحسانك وفضلك علىّ ، فقد عملت معك سنوات لم أرَ منك فيها إلا كل خير ، كما تعلم يقينا بل ورأيت بعينىّ رأسك أن ابنتك كانت ترى ولدها بصفة مستمرة ، ولكن ربما غلبتكم رعونات أنفسكم ، ومكر بكم الشيطان فمكرتم بى فأردتم أن تسلبوني ولدى بعدما فقدت كل شئ سواه ، فلتعلم أنني لن أسكت ، ولن أضام فى ظل عدل الرحمن والسلام .

ذهبت إلى صديقى الحميم ورويت له كل ما دار بينى وبين ذاك الرجل ، وأنا فى حالة يرثى لها فقال لى صديقى :

- ويحك أيها الرجل ، ألن تكف عن ضعفك؟ .

- إنك تفهم حلمى ضعفا ، ولكن المثل يقول اتق شر الحليم إذا غضب ، وقد حلمت عليهم ما فيه الكفاية ، لكننى سأمد حبال الحكمة قليلا ، فإن ولدى فى إيديهم وأن تلك المرأة امرأة رعناء ، فإذا ما تصرفت مثلها أوذى ولدى منها إيذاء كبيرا .

- لكنك يا صديقى بهذا الحلم ستجعلهم - وهم قوم سوء - يوجهون إليك ضربات قاضية متوالية .

- هل فى ذهنك شئ ما أو تصرف ينبغى علىّ أن أتصرفه فى مثل هذا الأمر ؟.

- بلّغ عنهم الشرطة وأرفق ببلاغك اتهاما مباشرا لطليقتك بالخيانة والزنا .

- وهل يحق لى أن أبلغ عن أمر كهذا بعد كل هذه السنوات ، وأفضح ولدى وأشوه مستقبله وأنعت أمه بمثل هذا الأمر الشنيع بعد أن كبر ودخل المدرسة ، وأصبح المستقبل أمامه مفتوحا فى مجتمع لا يرحم ؟، هل نجئ بأطفالنا فلذات أكبادنا إلى الحياة لنعذبهم ولنحملهم أخطاءنا ، وليكونوا أضاحى ونذورا فداء هذه الأخطاء؟.

- إنك يا صديقى تتحدث من منظور الإنسان المقهور، وهو أنا، وتتحدث من منطلق الرجل الذى أهين فى شرفه وكرامته ، من امرأة حقيرة لا تساوى شيئا ، ولا تستحق أن تحمل لقب أم ، وإذا ما أردت أن تمثل للنذالة والخسة والد ناءة والحقارة ، فلن تمثل إلا بها وبأمثالها من النسوة ، اللاتى لا يدركن قيمة وقدسية الحياة الزوجية ، وشرف الأمومة وعظمة المسئولية ، وإننى لا أحمل لتلك المرأة أية مشاعر تخولنى للمغفرة أو تقودنى للرحمة فلسان حالى يقول(*):

اسقط حبكِ من سنين حياتى	وصلبته شبحا على الطرقات
وجمعت ايام الفضائل كلها	فوجدت بعدى اجمل الحسنات
قد كنتِ فى ليل الضلال	لا الصوم يغفرها ولا صلواتى

***

وفارقت صديقى وذهبت لمنزلى وأنا فى كرب شديد ، كيف أدخل الدار وحدى وقد حوتنى وولدى سنوات ؟ ، كيف أتحمل سجن جدارنها وقد كانت لى ولولدى جدرانا تغطى ليلنا بالسعادة والاحتواء ؟ ، كيف أبيت منفردا وقد تعودت أن أحتضن ولدى فى فراشنا كل ليلة؟ .

وأولجت المفتاح فى باب الشقة ودخلت ، فإذا بالظلام يكتنفنى وإذا بالوحدة تحوطنى ، فتماسكت وولجت إلى غرفة النوم ، خلعت ملابسى ودخلت فراشى دون أن أتزود من أى طعام ، بعد يوم شاق نفسيا وجسديا وأنا أوشك على الإغماء والانهيار .

(*) فاروق جويدة : الديوان ص ١٢٦ ـ ط مركز الأهرام للترجمة

إلى متى هذا الظلم ؟ ، إلى متى هذا الغدر الذى يوشك أن يبتلعنى ؟ ، إلى متى يغدر بى الخلق ويطعنونى بخناجرهم ؟ ، إلى متى تنهال علىّ الدنيا بمصائبها ؟ ، وأخذت أناجى ربى :

ـ يارب يارب ، أخذت منى والدى ، فصبرت ولم أكن قد بلغت الرشد بعد ، وعانيت وأمى الأمرين من شرار خلقك ، ثم أخذت منى أمى ، آه يا أمى ، آه يا أمى ، كم أشتاق إليكِ ، كم يهزنى فراقك إلى الآن،أبَعْدَ الأم حضن يحتوينى،أبعد حنانكِ أجد حنانا ؟ ، آه لو تعرفين ما يحدث لى ، لقد ضيعتنى الدنيا وضيعنى الناس وضيعنى الزمان بما فيه ، تعلمت منكِ الصبر ، تعلمت منكِ الحكمة ، لكنهما سلاحان لا ينفعان فى هذا الزمان ، كلما ازددت صبرا ، كال لى الصبر ، كلما ازددت حكمة ، كال لى الغضب ، كنتِ تقولين اصبر يا ولدى ، لأنه لا مفر من الصبر ، وأين للبسطاء أن يجدوا ملاذا سوى الصبر ، وأنى لهم أن يجدوا دواء سوى الصبر ، أماه صبرتُ حتى عجز الصبرعن صبرى ، أماه حلمتُ حتى ناء الحلم بحملى ، أماه رق عظمى ووهن قلبى وضعف جسدى ، أماه انجدينى وأنتِ بين طبقات الثرى ، هل تسمعين صوتى ؟ ، هل تشعرين بى ؟ ، هل تئنين لأنينى ؟ ، أماه أو شكت أن آتى إليكِ ، فإن حالى جد عسير خطير.

كأن بلاد الله وهى عريضة على الخائف المطلوب كفة حابل

ضاع كل شئ ، ضاع الأب وضاعت الأم وضاع الولد وضاعت الأرض وضاع المال ، ولم يبق إلا سواك ياذا الجلال والإكرام ، اللهم إن كانت مصائبى بجرمى ، فأنت العفو القدير ، وإن كانت صرف ابتلاءات فقد ابتليت أحبابك وأنبياءك ، إلهى ها أنا يونس فى بطن الحوت ، ها أنا أيوب بين أطباق الضُر ، ها أنا يعقوب حين فقدان الولد ، ها أنا يوسف حين يعز الوالد ، إلهى:

كم معشر سلموا لم يؤذهم سبع وما يرى بشر لم يؤذه بشر

إلهي قد كنت صغيرا فكبرتني ، وكنت ضعيفا فقويتني ، وكنت ذليلا فأعززتني ، وكنت حقيرا فشرفتني ، وكنت بعيدا فأدنيتني :

قد كنت أدعوك والضُّر في كبدي والآن أدعوك والنار تأكلني
فإن حنوتَ فأنت الواحدُ الصمدُ وإن عفوت فأنت بذاك منفردُ
قد كان قولي إلهي ليس لي أحد وكنت أرجوك والظلم متحدُ
فامنن عليّ بعفو منك يحويني والطف بحالي فإن الشر يكويني

***

أخذت أبكي وأصلي وأتودد إلى ربي حتى انبلج الفجر ، وأنا مازلت على حالي الضنك ، ثم غلبتني عيناي فنمت دون أن أشعر ورأسي يكاد ينفجر من البكاء ، فشاهدت والدتي في المنام تربت على يديّ وتمسح بيديها الحانيتين دموع عينيّ وتقول لي :

- صبرا صبرا فإن موعدنا الجنة .

وأفقت وقد غسل الله نفسي ، وأزال ضيق صدري ، فجلست في شرفة المنزل أتامل الفضاء أمامي ، وكنت في منزل يقابل المقابر، وأخذت أتأمل وأراقب حال الأموات ، فإذا بجنازة تأتي وإذا بهم يكبرون وهم يدفنون ميتهم ويسألون له الثبات ، فعرفت أن الموت هو النهاية - وقد كنت أعرف - لكن رأى العين غير العلم فقط ، قبل ذلك دفنت والديّ وعرفت ألم الفراق وذقت لسعة الموت ، لكنني الآن وأنا أرى بأم عينيّ هذا المشهد الأليم العظيم الرهيب المروع ، لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

أدرك حقيقة أن الحياة لا تساوي شيئا ، حروب وأحلام وأوهام وضغائن وأحقاد وتعارف ولقاء وفراق ومال ونسوة وبنون وشهوات وغرور ، وفي النهاية كل ذلك إلى زوال ، إلى فناء ، كل ذلك يئول إلى تراب وما أدراك ما التراب .

تود البقاءَ النفسُ من خيفة الردى وطول بقاء المرء ثم مجربُ
وما الأرض إلا مثلنا الرزقَ تبتغي فتأكل من هذا الأنام وتشربُ

أو كما قال حكيم :

قضى الله أن الآدميَّ معـذبُ	إلى أن يقول العـالمون به قضى
فهنئ ولاة الميتِ يوم رحيـله	أصاب تراثا واستراح الذى مضى
رأيت المرء تأكله الليـالى	كأكل الأرض ساقطةَ الحـديد
وما تبقى المنيـةُ حين تـأتى	على نفس ابن آدم من مـزيد

وقمتُ إلى عملى بذهن صافٍ ونفس أكثر صفاءً ، وقررت أن أتصرف تصرفا حاسما حازما مع هذه المرأة ، فما أمرنا الدين أبدا أن نكون ضعفاء ، وقد يفهم الناسُ الحلمَ ضعفا والحكمة خورا والصبر انحناء:

اتحنُّ عليك قلـوب الورى	إذا دمع عينيك يوما جـرى
وهل ترحم الحمل المستضـام	ذئاب الفلا أو أسـود الشرى
فكن يابس العود صلب القناة	قوى الميراث متين العـرى

وبعد وقت العمل ذهبت إلى بيت طليقتى ، ففتح لى والدها الباب وقابلنى بمنتهى البرود وقال لى :

- أفندم ؟ .

فدفعته بيدى ودخلت إلى الشقة الفاخرة التى يسكن بها وقد علقوا فيها من الزخارف واللوحات ماشاء الله ، إلا أنهم لم يهتموا بتعليق آية قرآنية واحدة ، فتذكرت الأثر الذى يقول : أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم فى حياتهم الدنيا .

جلست وقد وضعت ساقا على ساق فذهل الرجل لطريقتى الجديدة ، وأخذ ينظر إلىّ هُنيهة ثم قال وحلقه يكاد يجف خوفا منى واضطرابا من الموقف :

- ولدك فى الحفظ والصون .

- أعلم ولستم تملكون غير هذا ، ولكنى سأمر مرورا سريعا على بيوت معارفكم وأقاربكم الذين عرفتهم واحدا واحدا وسأخبرهم بحقيقة ما رأيت من ابنتكم المصون فى فراشى الذى

لوثته بفجورها وسآتى بذالك الرجل وقد عرفت مكانه ليشهد معى على صدق ماسأقول ، يدعوه لذلك مبلغ ضخم قبضه منى .
ذهل الرجل وأطرق كأنما على رأسه الطير أو كأنه سقط من حالق ثم استرد أنفاسه وقال متذللا :
ـ ولدى العزيز ، تعلم كم أحبك وأقدرك ، ولذا عملت معى سنوات لم تر فيها منى إلا كل خير ، ثم إننى زوجتك ابنتى وأسكنتك شقة بلا مقابل وأنكحتك إياها بمهر ضئيل .
ـ أمازلت تمن علىّ بإبنتك الساقطة ومهرها الضئيل الذى كنت سأشترى به فتاة مصونة بحق ، إن انحرفت ببصرى قليلا عن إبنتك التى يشمئز منها كل شريف عفيف ، والتى لا تعرف معنى الشرف ولا العفة ولا الأمانة ولا الكرامة ولا حتى الأمومة ، أمازلت تتكلم بهذه الصيغة أيها الرجل الوضيع الذى لم يعرف كيف يربى إبنته ، ولا يعرف كيف يحافظ على كلمة شرف أخذها على نفسه حين أستأمننى على أن أكتم ماحدث من إبنته ، ويترك لى ولدى مع أننى لم أحرمها يوما من رؤيته ، وهى التى لا تستحق شرف النظر ـ مجرد النظر ـ إلى عينيه الطاهرتين البريئتين ، ولكن لن أطيل الحديث مع أمثالك ، إما أن آخذ ولدى الساعة وإما سيعرف جميع أقاربكم ومعارفكم ـ بشهادة عشيق إبنتكم ـ ماحدث منها.
ـ أعدك أن آتى إليك بالولد فور رجوعه من المدرسة .
ـ أتخدعنى مرة أخرى أيها الكذاب المخاتل ، لقد عرفت أن الولد لم يذهب إلى المدرسة اليوم ، فأين الولد؟ .
فنظر إلىّ الرجل نظرة بلهاء ثم دخل فأتى لى بولدى مباشرة فلم أقم من مكانى ، بل طلبت منه أن يأتى بإبنته وبأمها معى إلى مركز الشرطة ، ليكتبوا تعهدا بعدم التعرض لولدى بعد الآن .
وبالفعل ذهبوا معى فى سيارتى الصغيرة إلى مركز الشرطة وكتبوا ذلك التعهد ثم طفت بهم على مكتب المحامى دون أن أعطيهم فرصة للهروب منى ، وأكتبتهم تنازلا رسميا عن الولد بل وعن حق رؤية أمه له مدى الحياة ، فلست آمنهم عليه بعد الآن ،



وقد كنت أتابع مسيرة حياتها من بُعد ، وأعرف أنها لم تتزوج بعدى لسوء خلقها وسمعتها ودورانها مع الرجال فى كل واد ، وأبوها عنها فى غفلة ، فهو رجل أبله ضعيف لا يقوى على مواجهة أمها ، بل ولا حتى يستطيع مواجهة تلك الابنة الشاذة أخلاقيا واجتماعيا وتربويا.

سافرت بعد ذلك بولدى إلى قريتى ، وهناك نزلت ضيفا على ابن عم أمى الذى أضحى شيخا مسنا ، رحبت بى زوجته ترحيبا شديدا ، ومكثت عندهم أياما بين الخضرة والماء والوجوه الحسنة البريئة التى لا تعرف زيف المدينة ولا خداع ذئابها ، وقد تقول لى - أيها القارئ - ألم تلدغ من أهل القرية قبل ذلك ؟ .

- وأرد عليك قائلاً :

- قد تلدغ من الذباب فتلسعك لدغاته ، لكنك حين تلدغ من العقارب تُحمل إلى القبر.

***

(٧)

ظللت مع قريبنا الشهم مدة وافية ، استرددت فيها بعضا من راحة النفس ، وصار ولدى كظل لحفيدة ابن عم أمي حيث قارب الله بين قلبيهما وهما بعد في سن البراءة ، لم يعرف من الدنيا غشاوة الظلم وقساوة العدوان ومرارة الخيانة والغدر.

وكم أخذت ولدى إلى قبر والدىّ الحبيبين ، وكم سمعني وأنا أناجيهما ، وأروى لهما ماحدث لي في أيام عمرى الماضية ، بعد أن تركاني ، وأشكو لهما مرارة سنواتي الفائتة وشقاوة حرماني منهما ، وأنا مبتل الوجه من أثر الدمع الغزير الذى أبكيه عليهما رغم مضى كل هذه السنوات.

وحين قررت الرجوع لعملي بالعاصمة ، حزن عمي او ابن عم أمي كثيرا ، فقد تعود على وجودى معه ، ولكن هذه هي أحوال الدنيا ، لقاء وفراق ، فرح وحزن ، ضحك وبكاء ، وقبل سفرى بيوم واحد وضعت نصف ما ادخرته إلى ذلك الوقت ، وكان مبلغا كبيرا مع قريبي الوفي ، وطلبت منه أن يشترى لي قيراطىّ اللذين بعتهما قبل رحيلي من القرية ، فقال لي وهو يبتسم :

ـ هكذا ياولدى تفعل الدنيا بأهلها ، وكما يقول ربك عز وجل :

{ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) } آل عمران .

وسافرت بعدها إلى موطن عملي ، ومعي ولدى الحبيب تاركا خلفه بذور حب وميل بدأ ينمو في صدر طفلة صغيرة نحوه ، فإن ساعات اللعب واللهو البرئ بين طفل وطفلة ، قد تنشئ علاقة سامية ، تغدو على مر الأيام قصة تُروى في الأمثال ، وحين وصلت إلى العاصمة واستقر ولدى في دراسته بعد تلك الأجازة التى كنا في أمس الحاجة إليها ، تحدثت مع صديقي الحميم كي ننشئ مطبعة صغيرة في منطقة الفجالة ، لن تناهز بالطبع مطابع

الفجالة الكبرى ، ولكنها بالتأكيد - ومع مزيد عناية واجتهاد - ستغدو مطبعة ناجحة.

***

لم يكن من الطبيعى أن أظل أرعى ولدى بمفردى ، فأنا رغم حرارة عاطفتى ، إلا إننى عملى بالفطرة ، أبعد ما أكون عن التشاؤم من تجربة أو أخرى ، وبالفعل - وهذا ماسوف يُستغرب - تقدمت لأخت صديقى الكبرى والتى كانت تكبرنى بسبع سنوات ، فقد فاتها قطار الزواج رغم جمالها المعقول وطيبة أخلاقها ورغم حسن عشرتها الذى اكتشفته بعد الزواج ، وتزوجنا مع فرحة ولدى ، فقد استطاعت تلك السيدة الفاضلة أن تحتويه احتواء كبيرا فى فترة الخطبة التى استمرت ثلاثة شهور فقط .

قد تتساءل أيها القارئ الحميم لماذا تزوجت امرأة تكبرنى بسبع سنوات ، وأنا مازالت فى ريعان شبابى ، وكونى والدا لطفل صغير لا يعوقنى نهائيا عن الزواج بشابة تصغرنى ، حتى وإن كانت ثيبا ، ولكنى أردت أن أشبع فى نفسى احتياجى لصدر امرأة يحتوينى ، أشعر فى أعماقه بدفء وحنان الأمومة الذى افتقدته فى صغرى ، وطحنتنى بعدها معارك الحياة.

إننى رغم مايبدو لك من قوتى النفسية وتحاملى بل واحتمالى كثيرا من الأهوال بصبر ، ومقابلتها بحكمة فريدة ، إلا أننى فى ليلى المظلم هاش النفسية أتقوى لمواصلة نهارى بركيعات أركعها لربى ، ودمعات أبكيها بين يدىّ خالقى ، ثم إننى أردت لولدى امرأة أعرف عنها دماثة الخلق ، لتحتمل تربيته ولا تتبرم من بعض تصرفاته التى قد تصدر عنه فى مرحلة طفولته ، وهذا طبيعى جدا ، إن الوالد بطبيعة الفطرة الأبوية لا يفكر فى ذاته فقط بعيدا عن متطلبات واحتياجات أولاده ، فإن الأبوة حياة كبرى زينتها الحب والإيثار والتضحية والجلد وليس الأب من أنجب ولم يضح ، لكن الأب من أنجب وربى وضحى وافتدى أولاده بالغالى والنفيس ، وكما قال الشاعر الأديب أحمد شوقى :

ليس اليتم من انتهى أبواه من هم الحياة وخلفاه ذليلا

إن اليتيم هو الذى تلقى له أما تخلت أو أبا مشغــــولا

وقد عرفت قيمة مافعله والدى معى فى صغرى ، وضعف بنيانى ، وعرفت كيف أنه كان يضحي بكل شئ من أجلى ، عاش معى أبا حميدا فى سيرته ، لطيفا فى عشرته كريما فى بذله وجوده ، ومات وقلبى به مشغوف ونفسى به مولعة .

ياأبى وهــو نــــداء لم يزل فى فمى أطيب ألفاظ النداء

حسب حظى اليوم من ترديده لذة النطق وعز الانتــــماء

وصارت تلك الزوجة - بالفعل - أما حنونا لولدى الحبيب تعطف عليه وتبالغ فى تدليله ، تطعمه وتسقيه ، ترعاه يقظة ومناما ، وهى مع كل ذلك تحاول تربيته - جاهدة - بوسائل نافعة لطيفة حتى تيم بهاالولد وصار يصحو وينام على ذكراها يدخل ويخرج وهو فى طاعتها وتلبية رغباتها ، يهديها ورودا فى مناسبات متقاربة ، تعبيرا عن حبه الطفولى البرئ لها.

وحملت زوجتى وولدت لى إبنة جميلة كأمها ، وفرح بها ولدى فرحا عارما ، وبمقدم وليدتى الحبيبة انتقلنا إلى مسكن جديد ، وتوسعت مع صديقى ونسيبى العزيز فى عملنا ، وأخذنا من وزارة التربية والتعليم إذنا لطباعة بعض الكتب المدرسية للطلبة والطالبات ، فكان مولد ابنتى رزقا جديدا واسعا لنا جميعا .

أحب البنات وحـــب البنا ت فرض على كل نفس كريمه

فإن شعيبا من أجل البــنا ت أخدمه الله موس كليـمه

***

(٨)

لا تمضى الحياة على وتيرة واحدة ، ولذا فوجئت ذات يوم وزوجتى حبلى للمرة الثانية ، بأن تلك الزوجة الوفية تشتكى من وجع شديد بصدرها ، وأسرعت بها إلى الطبيب ليطمئن قلبى فإذا به يملأ قلبى بالخوف ، إذ أخرجها من الغرفة بعد الكشف الدقيق عليها وقال لى ببرود الأطباء المعهود:

- إن زوجتك أيها السيد الكريم مريضة بمرض خطير ، وإنى أرجو أن تخيب الأشعة ظنى فقلت له :

- فيما تشك ياسيدى؟ .

- إنها تشكو من سعال متواصل وضيق فى التنفس ، وهذا بالطبع يقودنا إلى الشك فى أن تكون الرئتان مصابتين بمرض ما ، لذا ستقوم سريعا بإجراء الفحوصات الدقيقة التى طلبتها منك على زوجتك ، وسوف يكون خيرا بإذن الله وكل شئ الآن له علاج ، فكما تعلم لقد تقدم الطب كثيرا فى زمننا الحاضر ، لكن المشكلة التى ينبغى أن تسرع فى أجراء تلك الفحوصات من أجلها إن زوجتك تحمل جنينا فى أحشائها ، ينبغى أن نجنبه آثار المرض والعلاج بشتى الطرق ، خاصة وهى فى الشهور الأولى من الحمل .

أسرعت وقمت بإجراء ما أمر به الطبيب من فحوصات لزوجتى الحبيبة ، وهى فى كل تلك المرحلة تطمئن قلبى وتقول لى :

- لا تخف من شئ ، فما قدره الله سيكون ، وأنا أعلم أن لطف الله سابق لقدره.

ولم يدر ولدى بشئ مما نمر به خلال تلك المرحلة ، فقد أرسلته ليمكث مع عم والدتى بضعة أيام حتى ننتهى من تلك الإجراءات الطبية ونخرج من تلك الضائقة بسلام ، مع أن قلبى كان يحدثنى أنها لن توصلنا إلا لكارثة ستسبب حتما فجوة جديدة فى قلبى .

أظهرت الفحوصات أن زوجتى مريضة بسرطان الرئتين ، فأخبرنى الطبيب حين رأى الفحوصات أن زوجتى فى مرحلتها الأخيرة من المرض ، وأخبرنى بجمود الطبيب الذى لا يعرف الرحمة بقلبه ، والذى تعود رؤية المشارط والدماء والجثث والبقاء فى المشارح ليلا ، أن زوجتى لن تمكث طويلا معى فى هذه الحياة ، وأنه يرجو الله أن تضع حملها قبل أن تنتهى أنفاسها الضعيفة ، ولذا لن يجازف بإعطائها أية أدوية خوفا على صحة الجنين ، الذى أظهرت الصورة التليفزونية أنه كان بنتا ، ورغم تعود قلبى القوى دوما على صعاب الحياة وفقدان الأحباب ، إلا أن مرض زوجتى وأقوال الطبيب القاسية أثرت فىّ أبلغ تأثير ، حتى كنتُ أبكى فى دورة المياة خوفا عليها ، وشفقة رحمة بها، دون أن أخبرها أو أظهر لها أى ضعف .

بعد أن كان صدرها الحبيب مأواى وملاذى ، أصبحت أفزع إلى بقايا من ثياب والدتى ، أشتم فيها رائحة الحنان ، وأبكى على زوجتى دموعا غزيرة بين طياتها ، وما كان ذلك هربا من أحضان زوجتى الحبيبة بقدر ما كان هربا من أن ترانى ضعيفا ، فتئن ضعفا هى الأخرى وجزعا ، وأنا الذى لم أخبرها بالنهاية المفجعة التى تنتظرها بل كل ما أخبرتها به أنها تشكو من حساسية بسيطة فى الصدر ، ستغدو إلى زوال بعد الوضع بمشيئة الله.

ومرت الأيام تلو الأيام واقترب ميعاد وضع زرجتى لابنتى الجديدة وكنت كلما اقترب الموعد اضطرب قلبى وأوشكت على الانهيار ، لقد فرحت بزوجتى حين تزوجتها لأننى رجعت إلى الأمومة أنا وولدى ، فكيف أفقد كل هذا فى دقائق كئيبة تفصل بين الحياة والموت ، والأدهى من ذلك أننى لا أعرف موعدها ، ولا أملك لها دفعا ولا أقدر على الشكوى لمخلوق ، كما لا أستطيع أن أبث زوجتى الحبيبة ألمى ومعاناتى كما تعودت .

وجاء الموعد المحتوم وحل ميعاد الوضع ، وذهبنا إلى المشفى تحت إشراف طبيب مختص يعرف الحالة جيدا ، وولدت زوجتى بنتا جميلة لكنها فارقت الحياة فى نفس اللحظة التى أتت

فيها تلك الإبنة إلى الحياة ، ووجدت ضعفى قد تحول إلى قوة عجيبة ، وجزعى قد تحول أيضا إلى صبر وتماسك غريب ، فقمت بإجراءات الدفن واستأذنت أخاها الحبيب ، فى أن ادفنها بقريتى بجوار والدىّ ، فإذن لى لعلمه باحتياجى الشديد إلى ذلك ، ولرفقه بى فى تلك الآونة ، رغم ماكان يبدو علىّ من قوة ، فهو صديقى وأعلم الناس بنفسى ، ودفنت زوجتى حيث أردتُ ، وعدت إلى منزلى ومنزلها ، أو الذى أصبح مأوى الذكريات الأليمة التى كانت لذيذة قبل رحيلها ، واحتضنت أبنائى الثلاثة وسط تساؤلات ولدى عن أمه الراحلة ، وهو الذى لم يسأل عن أمه الحقيقية يوما ، وكأن قلبه البرئ كان يشعر بمعادن الناس وهو الذى لم يبلغ الثامنة بعد .

وأفقت ذات ليلة من نومى ودمعى منهمر على وسادتى التى أضحت خالية من رفيقة الحياة وحبيبة القلب ، وأخذت أتضرع إلى المولى عز وجل أن ينسينى هذه الفاجعة ، كما أنسانى قبلها فواجع مؤلمة كثيرة ، وأن يبرد نار قلبى التى تستعر فى كل وقت وحين ، حتى أستطيع التواصل مع الحياة واحتواء أولادى الثلاثة ورعايتهم ، بعد أن قررت أن اعيش حياتى لهم بمفردهم ، واستجاب الله لدعائى وكأنما أفقت من غمة ، ورجع قلبى إلى سابق عهده ، حيث التفاؤل والأمل فى الغد المشرق ، فأولادى معى وعملى ناجح وأنا قبل كل شئ مؤمن بالله ، ثم بنفسى التى لا تعرف اليأس ولا الحزن ولا الخور ولا الخنوع ، بل هى نفس تواقة دائما إلى الأفضل وإلى حياة سعيدة أقدم فيها الكثير إلى أحبابى الصغار ، فهم أولى الناس بعطائى وحنانى ورعايتى ومالى ولن يخيب الله ظنى فيه .

***

(٩)

مررت مع أولادى - وفى ظل اجتماعنا معا - مكافحا فى تربيتهم بمفردى ، بظروف متباينة كثيرة ، مابين أيام حزينة وأخرى سعيدة وما بين ظروف قاسية وغيرها طبيعية ، مابين وحدة عن الناس - وهذا هو الغالب - ومابين اجتماع نادر بهم ، ولم يكن اجتماعنا إلا مع خالهم صديقى الوحيد ، وكبر أولاده مع أولادى يوما بيوم ، فقد كانوا متقاربى الأعمار ، وبالطبع كان ولدى عبد الرحمن هو أكبرهم ، وقد كان صديقى وخال البنات يعامله كأنه خاله هو أيضا .

ومرت السنوات بنا جميعا تقلبنا الدنيا كيف شاءت ، حتى كبر الأولاد وصاروا فى مراحل دراسية متقدمة ، ودخل عبدالرحمن كلية الطب لسبب بسيط ، بالإضافة إلى تفوقه ، وهو أنه مرض بعد وفاة زوجتى بالسكر من أثر حزنه لفقدها ، فأراد - وهذا ما عرفته من كلامه معى - أن يعرف كنه جسد الإنسان ، حتى يصبح مخففا لآلام كل مريض بعدما ذاق من ويلات مرضه العنيد ، وبالفعل قرر ونفذ والتحق بتلك الكلية ، وتحمل صعوبة دروسها ومشقة دراستها، ولم أبخل عليه بشئ فقد نذرت مالى وعمرى لولدى وابنتىّ .

ودخلت سارة ابنتى الكبرى المرحلة الثانوية ، وحين بدأت دراستها أصيبت - وللأسف - بداء غريب فى عينيها ، إذ كانت ترى بوضوح تام لمدة أربعة أيام فى الأسبوع ولا ترى البتة لمدة ثلاثة أيام الأخرى فى الأسبوع ، ولم أسكت على هذا الموضوع ، ولا هذا المرض الغريب ، بل ما أصابنى من الدهشة كان أضعاف ما أصابنى من الجزع ، لأننى والحمد لله شديد الإيمان بإرادة الله وقدره ، وذهبت بها إلى أطباء كثيرين ، ولم يصل أى منهم لتفسير معقول لهذا المرض الشاذ ، فتمسكت بقليل من الصبر ، وكنت أساعدها قدر ما تسمح به ظروف عملى ، كما يساعدها أخوها فى استذكار دروسها لمدة أربعة أيام فى الأسبوع ، وهى

التى ترى فيها بوضوح حتى تنجز أكبر قدر ممكن مما عليها من واجبات مدرسية ، وقد كانت والحمد لله نشطة مجدة.

أما إبنتى هاجر فقد كانت سيدة المنزل بحق ، حنونة كأمها مدبرة مثلها ، طاهية ماهرة ، لقد متعنى الله بثلاثة أبناء كالزهور لكن معاناتى الحقيقية كانت مع ولدى عبد الرحمن ، إذ أنه كان معقدا من والدته بسبب تخليها عنه فى صغره ، ثم بسبب سوء مسلكها وسيرتها السيئة ، لقد كبرت تلك السيدة التى أفزعتنى ذات ليلة برجل غريب فى فراشى ، كبرت سنا لكنها ظلت تقل قيمة ، كلماكبرت أضحت سيرتها على كل لسان ، خاصة بعد موت والديها وسكناها بشقتها منفردة ، كانت تبدل الرجال كما تبدل الثياب ، لا تخاف غضبا لرب ولا مقتا من عبد .

كان يحدثنى ويشكو لى باستمرار من سوء أفعالها ، وكيف أن زملاءه يسخرون منه ، ويتهامزون عليه ، وكيف كان يعانى من خلافاته المستمرة وعراكه المستمر مع أترابه بسبب تهامزهم على أمه ، وبسبب ما يصله من حديث ساخر منها ، وكم ذهب لأمه رغم أنفه - ورغم أنه لا يطيقها - ناصحا لها ، ومخبرا إياها بما يُفعل به بسببها ، فما كان منها إلا أن تقول له كل مرة :

- ليس لك شأن بحياتى ، إن حياتى ملك لى فقط ، ارجع إلى أبيك الذى تركنى فى شبابى وغدر بى .

وبالطبع لم أكن قد رويت لولدى عن سبب تركى لأمه ، اللهم إلا ذكرى لطباعها السيئة لمجرد التبرير فقط لما حدث بينى وبينها، من أجل مصلحة هذا الولد ونفسيته وتربيته حتى ينشأ سويا من كل النواحى ، فكيف بحق الله يمكن لأب عاقل أن يخبر ولده أن أمه كانت عاشقة لرجل غير أبيه ، وكم حاولت أن أعوضه عن أمه وفقدانها ، وكنت بعد أن كبر فى السن أسمح له فى زيارتها بين الفينة والأخرى حتى لا يشك فى أى شئ ، رغم ذلك كله تأتى تلك الفاجرة لتدعى أمام الولد أننى غدرت بها وتركتها فى شبابها لتبرر سوء مسلكها، لقد صدق الشاعر إذ يقول:

إن أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمرد(*)

حاولت قدر طاقتي التخفيف عن ولدى ، كما حاولت إسعاده بشتى الطرق منذ نعومة أظفاره ، ومازلت أقوم بهذا الدور ، ولعلك لاحظت سيدى القارئ أننى طويل الباع فى الصبر ، أحاول تمثّل الحكمة إلى أقصى الحدود ، ولذا حاولت أن أعين ولدى على بر أمه رغم ماهى عليه من سوء أخلاق ، فقد أمر النبى صلى الله عليه وسلم أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنها ببر أمها وقبول هداياها رغم شركها وكفرها بالله عزوجل ، وأنا مقتنع تمام الاقتناع بأننى يجب أن أطبق الدين فى أخلاقى ومثالياتى ، كما أطبقه فى شعائرى وعباداتى ، فالدين عقيدة وعبادة ومعاملة وأخلاق ، حتى إنه ينبغى أن يحكم فى عاداتنا وتقاليدنا وأعرافنا ، لا كما يفعل الناس فى معظم الأحوال ، من بُعد عن الدين بمعناه الشامل الكامل ، حيث المعاملة الحسنة والضمير الحى ، وأن تحب لأخيك ما تحبه لنفسك ، لكنهم يتعبدون كأحسن ما يكون التعبد فى ذات الوقت متناسين قول النبى صلى الله عليه وسلم : إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق .

قررت من ناحية أخرى أن أعرض إبنتى سارة على طبيب أوروبى يأتى إلى مصر كل عام فى وقت محدد ، ليطمئن قلبى على عينيها، وحين عرضتها قال لى إنه لا يستطيع على أى حال علاج الحالة بالكلية ، ولكنه سيحاول جعلها ترى لمدة خمسة أيام فقط فى الأسبوع عن طريق حقنها بمادة البوتوكس حول عينيها ، وذلك سيخفف بالطبع من حدة الحالة.

وبالكفاح المستمر والصبر وصلت بأولادى إلى مراحل متقدمة فى تعليمهم ، حتى تخرج ولدى عبد الرحمن من كلية الطب وتخصص فى أمراض الباطنة والقلب ، كما دخلت سارة كلية الآداب وتخصصت فى الفلسفة ، فقد أقنعتها أنها يجب أن تتخصص فى كلية نظرية ، نظرا لظروف عينيها ، فهذا أيسر بكثير من دخولها كلية عملية ، ودخلت هاجر كلية الآداب كذلك لتكون بجوار أختها وتخصصت فى قسم اللغة الفرنسية.

(*) المتنبى .

فتحت لولدى مجالا فى عمله ، إذ توسطت له عند صديق لى فعمل معه فى عيادته الكبرى بميدان التحرير ، تحت إشراف ذلك الطبيب الكبير ، وساعده كذلك على السيطرة على مرضه المزمن (السكر) ، ثم فكرت بجدية فى تزويج أولادى ، كى أطمئن عليهم وقد أشرفت على الستين .

إلى هنا تنتهى مرحلة كبرى فى تاريخنا معا ، أنا وأولادى ، أرى فيها أن أعوض نفسى بهم بعد الله وأعوضهم عن أى شئ قد نقص من حياتهم الأسرية أو العملية ، لأكون نبراسا لهم وقدوة ومثالا محتذى ، إذا ذكرونى بعد موتى ، ولأؤكد لنفسى قبل كل شئ أن الإنسان بداخله طاقة جبارة يمتلك بها مفاتيح المعجزات ، فإن كانت المعجزات خاصة للأنبياء ، فإن الإنسان المثابر يستطيع أن يجعل من أهدافه التى لا تخالف الدين واقعا ملموسا على أرض الحقيقة ، أن يتخطى بقلب شجاع كل العقبات ، وأن يثق تمام الثقة أن الله سبحانه الذى قال فى محكم تنزيله : { لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ } (٤) البلد ، لن يترك هذا الإنسان وهو عبده الضعيف ، ولن يضيعه سدى فى متاهات الحياة ، وأن الأخلاق الحميدة فى التعامل مع الناس ، والصبر على أذاهم كفيل بأن يعبر بهذا الإنسان إلى بر الأمان ، وأن من يضحك أخيرا يضحك كثيرا وفى النهاية كل شئ ناجح فبفضل الله وحده .

***

(١٠)

أراد الله أن ينهى معاناة ولدى من ناحية أمه فقد ماتت قتيلة ، قتلها أحد عشاقها ليسرق مالها ، ونزلت صورها فى صفحة الحوادث رغم محاولاتى الفاشلة لمنع ذلك ، حفاظا على ولدى من الفضيحة الشائنة.

ومرت الأيام ونسى الولد البار تلك الأم بفضل دعائى له ، ثم بفضل انشغاله الشديد فى عمله ، وتخرجت البنات ، ورغم مرض سارة فى عينيها ، إلا أنها وفقت إلى زوج طيب القلب تقدم لها ، حيث كان يعمل معيدا فى الكلية التى كانت تدرس فيها ، وأخبرته بظروفها ، فازداد تمسكا بها لفضل الله ثم لكرم أخلاقه وحبه لها، وتمت مراسم الزواج فى بساطة وسرعة ، وعاشت فى شقة معه قرب مكان إقامة والدته واخوته ، وكان ذلك بناء على طلب أمه الفاضلة حتى توفر لها الراحة فى اليومين اللذين تفقد فيهما بصرها ، فقدانا تاما ، وذلك ـ فى وجهة نظرى ـ رحمة من الله بفضل صبرى طوال حياتى ، وحرصى على إرضاء الله إرضاء يليق بضعفى وكرمه سبحانه .

وتزوجت هاجر كذلك بعد أختها مباشرة من صديق ولدى ، يعمل طبيبا أيضا وأحسست أننى ينبغى أن أستريح من العناء الطويل ومشوار الصبر الأكثر طولا ، فقررت الرجوع إلى بلدى وتصفية أعمالى بالعاصمة ، وأخبرت ولدى بالأمر بعد أن صار رفيقى الوحيد ، حيث مات خاله منذ ثلاثة أعوام ، وقد كان صديقى الحميم كما تعلمون.

وفرح ولدى بقرارى ، ومع دهشتى الكبيرة ومخالفة توقعاتى وجدته قد قرر نفس القرار معى ، لسبب واحد هو أن يبتعد عن مناخ الفضيحة الذى عاش فيه طويلا بسبب أمه الراحلة ، وبعد شهرين أو ثلاثة استطعنا أن نصفى أعمالنا ونجمع أموالنا ، وتركنا شقتنا على حالها ، تحسبا لأية ظروف قد تلجأنا للعودة إلى



القاهرة فى أى وقت ، وحتى تكون ملجأ للفتاتين إذا أرادتا أن تغضبا من زوجيهما يوما ما !! .

وبالفعل عدنا ذات صباح إلى قريتنا بعد وداع البنتين ، محملين بجعبة من الذكريات ، آملين أن نبدأ فى وطننا الأم حياة بعيدة عن مساوئ الماضى ، خالية من سلبيات الحياة فى القاهرة التى تجرعنا فيها غصصا مؤلمة كثيرة .

وأخذت أفكر وأنا فى القطار وولدى فى نومه بجوارى ، كيف خرجت من القرية الحبيبة صغيرا وحيدا ، وعشت سنوات لا أملك فيها درهما ، وكم بت طاويا على الجوع ، وكم عشت أتألم ليلا دون ونيس ، دون من يخفف عنى ذرة ألم ، وكيف عدت إلى القرية بعد سنوات بولدى صغيرا ، حين كنت أزور ابن عم أمى الشهم ، وكيف أعود الآن إلى موطن والدىّ الحبيبين محملا بالمال والغنى ، أو كما يقولون محملا بإكليل من النصر ، بعد أن خضت تجارب كثيرة صعبة المراس ، وأليمة الذكرى ، احتجت فيها إلى التسلح بالصبر والحلم والكفاح والحكمة ، وتلك هى الصفات التى ورثتها بفضل الله عن والدىّ ، إننى لم أرث عن والدىّ سوى القليل ، بل أقل القليل لكنى ورثت منهما صفات أهلتنى لمواجهة حروب الحياة الطاحنة.

إننى أعود الآن وقد غشيتنى جوائز السماء ، تاركا إبنتين عزيزتين اطمأننت على مستقبليهما ، وأحسنت إليهما قدر استطاعتى كما أمرنى الدين ، بجوار ولد حبيب ، قطعة من شباب أبيه يشبهنى فى كثير من الصفات ، ويعوضنى عن شبابى الضائع فى بحور الظلمات ، ويمس حبه بداخلى وترا شديد الحساسية ، فهو ماضى وحاضرى ومستقبلى واسمى بعد موتى .

وما هذا التفكير تحيزا منى لجنس الذكور ، ولكنى ريفى بطبعى وأدرك بحكم نشأتى ، وبحكم إحساسى بأن الولد سند أبيه ، بأننى لا أساوى شيئا بدون هذا الولد الغالى الذى أتمنى ألا يمر بأى تجربة سيئة مررت بها ، ومن أهمها الفقر والحاجة والوحدة والغربة والخيانة.

ووصل القطار إلى محطتنا التى كنا نبغى ، فنزلت وأنا أشعر بأننى كالطفل الذى عاد إلى أحضان أمه وأشعر بشعور غريب من الأمان لم أشعره خلال سنوات عمرى الماضية كلها ، إن الغربة عن الوطن نار تتأجج فى الصدر وتحرق القلب :

غريب الدار ليس له صديق جميع سؤاله كيف الطريق؟

وكما قال آخر:

حتى متى أنا فى حلى وترحالى وطول سعى وإدبار وإقبالى

ونازح الدار لا انفك مغتربا عن الأحبة لا يدرون ماحالى

ولكن كل شئ يقدره الله خير ، وكما قيل فى السفر فوائد كثيرة :

وإن قيل فى الأسفار ذل ومحنة وقطع الفيافى واحتمال الشدائد

فموت الفتى خير له من حياته بدار هوان بين واش وحاسد

ووصلت وولدى إلى منزل قريبى العزيز ، فليس لى مسكن فى القرية سوى بيته ، واستقبلنى الشيخ العجوز استقبال الفاتحين ، وأخذنى فى أحضانه وهو يبكى من شدة الفرح ويقول لى :

ـ أمقيم أم عائد أيها الولد الحبيب ؟ .

فقلت له :

ـ بل مقيم إلى ماشاء الله يا أبتى .

ووجدت حفيدته الجميلة قد أضحت شابة يافعة باهرة الحسن ، فقلت بقلبى مبتهلا إلى الله :

ـ لعلى أطمئن على ولدى كما اطمأننت على إبنتىّ.

وسعيت فى الأيام التالية لإيجاد مسكن لى يليق بولدى ومركزه حيث عينته بفضل قريبى العجوز الطيب فى مشفى كبيرا بد منهور وكنت كذلك أفكر تفكيرا جديا فى بناء مشفى صغير معقول له ، حيث أحب ، فى القرية أو فى المدينة ، ليعمل فى مكان خاص به وليبنى مستقبله بشكل يشرفه أمام عروسه المقبلة .



كم تمنيت أن أفعل لولدى كل مالم يستطع أهلى أن يفعلوه لى وكم تمنيت أن أحميه من غوائل الدهر وقسوة الحرمان التى عانيتها فى شبابى ، فإن الأب ليتمنى أن يكون ولده أفضل منه ، وهذا ما لا يتاح للولد ، من شعور فى قلب أى إنسان ، سوى والديه.

ولن يفوتنى أن أقول لك إننى زرت قبر والدىّ مرارا بعد عودتى إلى القرية ، مع ولدى الذى بكى عند قبر جديه ، وهو يقرأ لهما الفاتحة ويقول لى:

ـ كم كنت أتمنى يا أبى أن أرى هذين الوالدين اللذين أنجبا رجلا عظيما مثلك ، ويقبل رأسى وننصرف كصديقين حميمين إلى بيتنا الجديد.

وبعد استقرارنا فى بيتنا الذى كان مريحا وواسعا ، حيث جعلت فيه مكان متسعا للعروس المقبلة وللأحفاد الذين طال انتظارى لهم ، وبعد استقرار ولدى فى عمله ، وبعد الابتداء فى إقامة مشفى ولدى الحبيب ، الذى اختار أن يكون بالقرية ، وبالتحديد بجوار منزلنا، وفى غضون أسابيع قليلة تم زفاف ولدى إلى عروسه الجميلة التى أحبها بقلبه منذ صغره ، ولم تستطع فتيات المدينة أن ينسينه إياها ولا أن يطغين بفتنتهن على جمالها البكر عجبا لقد كان الولد وفيا أصيلا كأبيه ، وكما قيل : من أنجب لم يمت.

ومن رحمة الله بى أن ولدى أنجب بعد سنة تماما ولدين توأمين وبعد سنة أخرى بنتين توأمين ، وصرت جدا فى أعوام قليلة لسبعة من الأحفاد.

أشعر أيها القارئ العزيز أنى قد أطلت عليك ، لكن مهلا هناك شئ آخر لابد أن تعرفه ، كان من الطبيعى بحسب سنن الله الكونية أن يحدث ـ وعلى رأس تلك السنن ـ أن الظالم يُقتص منه ولو بعد حين .

تذكر خالى الظالم الذى ظلمنى وأمى فى شرفى وشرفها ، واضطرنى لبيع ممتلكاتى فى مجلس العمدة وشيخ البلد ، ذلك المجلس الذى شهدته الشياطين ، ودونت كلماته الظالمة ملائكة الرحمن ، أن هذا الخال يرقد الآن فى مشفى للأمراض العقلية ،

حيث فقد عقله وخسر ثروته التى جمعها من الفقراء ظلما وعدوانا ، وخسر شرفه بالفعل حقيقة لا مجازا ، حيث لوثت إبنته ذلك الشرف حين كتبت ورقة عرفية بينها وبين عشيقها وهربت معه ، وعملت تاجرة حشيش مع زوجها الذى فى الحقيقة ليس بزوج لها ، ثم ألقت مباحث المخدرات القبض عليهما ، واعترفت بكل جرائمها، وكيف أن عشيقها جعلها تضل الطريق بعيدا عن أسرتها ، وكيف أنه أقنعها أنه زوج لها ، وعلمها كل معانى الانحراف ، ثم تخلى عنها ولاذ بالفرار ، لكن الشرطة قبضت عليه فى النهاية ، وبكت تلك الفتاة أمام ضابط المباحث ، ليس ندما على انزلاقها للهاوية فقط ، وإنما بسبب إدمانها أيضا ، وقررت أن تغسل حوبتها فماتت منتحرة فى السجن .

علمت كل هذا من أهل البلد ، ورأيت فى أعين الكثيرين منهم الشماتة فى خالى الغادر ، وسمعت من الكثيرين كذلك وعلى ألسنتهم القذرة أنواعا فاحشة من السباب ، على ذلك الخال الذى عاقبه الله على كل أعماله فى الدنيا ، وأشعر أن الله لن يفلته ، فالله يمهل ولا يهمل ، ومات قريبى الحبيب الشهم وهو فى التسعين وحزنت عليه حزنا كبيرا ، فقد كنت أشعر أنه أبى بعد أبى ويكفى ما تحمله فى سبيل أمى وبره بها وصلة رحمها فى شبابها قبل موتها رحمهما الله.

وأحسست باقتراب نهاية القصة وبدنو أجلى وكنت قد اشتريت مساحة من الأرض الزراعية كتبتها باسم أولادى الثلاثة حسب التقسيم الشرعي لها وقلت في نفسى ذات ليلة وأنا على فراشى :

- آن للراكب أن ينزل ، وللمسافر أن يرجع ، وللغائب أن يعود وللمهاجر أن يئوب ، وللمتعب أن يستريح .

فقمت من الفراش وصليت ركعتين وأنا أبكى ، دعوت الله فيهما أن يغفر زلاتى ويمحو خطيئاتى ، ويجعلنى فى مستقر رحمته ، فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ، وأن يجمعنى بأحبابى الراحلين قبلى ، أمى وأبى وزوجتى الحبيبة أم البنتين.

***



خاتمة الرحلة

شيعت اليوم الجمعة الموافق الحادى والعشرين من شهر أكتوبر بعام ألفين جنازة المرحوم الفقيد شريف يوسف الدمنهورى ، ودفن بمقابر العائلة ، بقرية ..... التابعة لمحافظة..... وإنا لله وإنا إليه راجعون.

***

تائِهٌ فى بحر امرأة

كـلـمـة ...

الكلمة عندي هي النافذة التي أطل منها على الحياة ...

وأشرف منها على الأبد ... وما وراء الأبد ..

هي الهواء الذي أتنفسه ..

وهي البلسم الذى داويت به جراح نفسي عندما عزّ الأُساة ..

هذه هي كلمتي !!.

إبراهيم ناجى

(١)

إن كنتِ عـــارفةً وواثقــــةً ويعمق هــذا الحــب آمنتِ
فثقي بأنك قبلتـي ابــــداً وصلاة روحي حيثما كنتِ
إن كان لي في الدهر أمنيةٌ منشــــودة أمنيتي انـــتِ

***

يا ذنْب فات المتـــــاب لمّـا تحـطم صــــرحي
مــالي عليــها عتاب إنـــي اعــاتب جُـرحي

***

ها أنذا أرقد في فراشي وحيداً أئن ، لا بكاء يُجدي ، ولا شكوى لجرحي تُبدي ما بداخلي من وجع وحنين ، آه يا نفسي ، آه من أوجاعي ، آه من ظنوني ، آه من هواجسي ، كيف للآه أن تداوي أو تهدئ لوعة الأحزان أو تطفئ لهيب الاشتياق ؟!.

وها هي الآن ترتع في الدنيا ما بدا لها ، لا تشعر بحنيني أو ألمي أو أسفي لفقدها ، ما بال قلبها نسى كل ما سطره القدر بيننا ما بال أيامي سوداء بعدها ، مالي بدونها كئيباً ضعيفاً هزيلاً ، أنا الذي كنت أتباهى بقوتي أمام الناس ، ما بالي أذكرها وتنساني ، ما بالي أحبها ولا تشعر بي ، ما بالي أعيش فيها وتحيا في رجل سواي ، ما لذلبي تحت أقدامها ، كرهت ضعفي وأبغضت أنيني وحنيني ، إنها تعيش بروحي تاركة إياي وحيداً مسكيناً مظلماً.

يا حبيبة روحي دعيني لحالي ولمرضي .

يا حبيبة روحي كفاني المرض ضعفاً وهزيمة .

يا حبيبة روحي أشكوك لقلبي ولا أشكوك لعوّادي .

يا طبيبة روحي داويني منك .. واعذريني .

يا ملاكي الطاهر كفاك غدراً وجفاءً وتعذيباً لي ولروحي ، إنني أصارع أمواج حبك في ظلمة حياتي .

إن كنتُ في حياتك ذنباً عظيماً فأنت نجمتي وكوكبي العالي المنير المشمس الوهّاج .

آه .. ما أقسى الدنيا على قلبي ، كلما دخلت بسفينتي في بحر الحب غرقت سفينتي وظللت أواجه الموج وحدي في ظلمة البحر والليل والفراق واللوعة والأسى والدموع !! .

أيا ملهمتي الحسناء ، رحماكِ بي ، كفاك تجبراً ، ها قد افترقت أيدينا وتاه حبنا في غابة الناس ، كفاك ظلماً ، ارحمي خيالي وعقلي وقلبي ، ارحمي تفكيري البائس في سمائك المظلمة .. ارحميني !!.

عرفتك صغيرة لاهية ، وأحببتك طفلة ساذجة ، لم أكن أعرف أنك حين تكبرين ستصيرين خنجراً مسموماً في صدري الذي يئن الآن بين يديك .

كنت واحتي الخضراء ، وكنت ألعب في مروجك ما بدا لي أن ألعب ، أتذكرين أيام الصبا يا بهجة روحي بل يا روح الروح ، أتذكرين أيامنا الأولى يا من قست الآن ، ستعرفين بعد رحيل أيامي عنك كيف أن غيابك مر وقاس ، لا تقولي لي : انس ، فأنى لي أن أنسى ، وكيف لي أن أنسى ، من أين أشترى النسيان ؟ ، إنه بضاعة غالية الآن ، بضاعة لها طُلاّبها ، ولستُ من طُلابها فعذابي في حبك أهون من نسياني هواك !!.

دعينا يا حبيبتي نتذكر الماضي ، دعيني أسبح بعيني في كتاب ذكرياتنا معاً ، دعيني أرجع بقلبي إلى أيامنا الخالية ، إلى غدير حبنا الصافي ، حيث لا وجع ولا أنين ولا نسيان ولا فراق ولا قسوة ولا حيرة ، إلى حيث الحب والتصافي والحنان والشوق والغيرة اللذيذة ، إلى العالم البرئ النقي الطاهر .

***



(٢)

حين يتحاب اثنان فلن يسعدهما شئ أكثر من المنح والعطاء ، يعطي المحب دائما كل شئ ، يعطي أفكاره وحياته ، وروحه ، وكل ما يملك ويشعر بالمنح ولذته ، ويخاطر بكل شئ ليعطي المحبوب أكثر وأكثر .

جي دي موباسان

***

تعارفنا ونحن في المرحلة الثانوية ، كنت أكبرك بعام واحد ، لكني كنت أشعر أنني أحتويك بعمري كله ، كنتِ طفلتي الجميلة ، كنت أختاً لصديقي الحميم أشرف ، لم يكن لي إلا أخ واحد يكبرني بعامين لكنه كان بعيداً عني في كل شئ كان عدواً لي في حقيقة الأمر ، عدو لي في كل شئ ، يبغضني ويغار مني ويظن دائماً أن أبوي يختصاني دونه بكل مزية وبكل خير ، وكل ذلك - يعلم الله - أنه من توهمات خياله المريض العاجزعن النجاح ، بل العاجز عن الحياة كلها ، فآثرت أن أبتعد عنه حتى آمن شره وجبروته وعنفوانه وصرت أقضي معظم وقتي مع أخيك أشرف ، نتحدث أو نذاكر دروسنا الكثيرة ، ورغم أنكم كنتم أغنى منا كثيراً إلا إنني لم أشعر بفارق بيني وبينكم أبداً ؛ لقد كنتم أهلي بالفعل ، وكان أخوك أخاً حميماً لي ورُب أخ لك لم تلده أمك !.

وكانت أمك تعاملني كأني ولدها بل كانت تقول إنها تحبني أكثر من ولدها أشرف ، كنت أقسم وقتي بين المُكث عندكم وبين أداء واجبي تجاه أبي وأمي وتجارة أبي حيث كان يملك محلاً للعطارة في الإسكندرية وبين الحب الجميل الذي يتغلغل كل يوم في أعماقي ويصيب قلبي بخِدر لذيذ ممتع ويفتح أمامي أبواباً من الأيام ودنيا من النعيم .

يا حبيبي اسقني الأماني واشرب	بوركت خمرةُ الرضا وهي تسكب
نضبت رحمةُ الوجــود جميــعاً	وبك الرحمة التـي لـيس تنضب

كنت أحبكِ حباً يمتلك علي دنياي بأسرها ، وكنتِ ـ فيما أظن ـ تبادليني نفس الحب ، كنت أعرف ذلك من نظرات عينيك وسلام يديك وحديث شفتيك ، رأيتك أول مرة فأحببتك ، وما كنتُ أعرف الحب قبلها ، كان قلبي في ظلام حالك لا يرى حتى نفسه ، فلما أشرق فيه الحب أشرقت فيه شمس ساطعة منيرة لها من الشمس نورها وجمالها وليس لها منها حرارتها ولذعاتها .

يا لائمي في الهوى .. يا ناصحي بالتُّقى ..

امسك عن لومك ، وكف عن نُصحك ..

أو إليك مقالي لتعرف حالي ..

فإذا سألوك : أصاحبك مجنون ؟ .

فقل لهم : لا .. هذا هو الحب ..

أهوى الهوى كل ذي لُب فلستَ ترى

إلا صحيحاً لـــه افعال مجنون

إن الجمال الذي لا يفنى هو جمال الروح ، وقد عشقت روحك قبل أن أعشق جمال صورتك ، وجهك وعينيك وشفتيك وشعرك ولا يكفي لفنان أياً وصل نجاحه إلى قمة القمم أم كان مجردَ هاوٍ مبتدئ كي يظهر الجمال وينجح في ذلك أن يظهر في صورة جمال الوجه والجسد ، إن المعجزة هي أن يظهر جمال الروح وفرط الشعور والإحساس .

لقد وجدتُ بجانبي القلب الذي يخفق لأجلي والعين التي تدمع عليّ ، والنفس التي تحبني لا لشئ سواي ، فقليل لها مني أن أمنحها حياتي فكيف أبخل عليها بقلبي ؟!.

وحين فاتحتك بحبي دمعت عيناك وقلتِ لي :

ـ يا يوسف .. قد عرفت حبك من أول نظرة لك إليّ لكني كنت أنتظر لحظة ميلاد ذلك الحب بقلب واجف مضطرب وأنا أدعو الله بكل جوانحي قائلة يارب لا تجعلنا نحب من لا يحبوننا حتى لا تشقينا بالحب مرتين .. يا إلهي .

إنني أخشى على السعادة حين أجدها خشيتي من مجابهة الفقدان خشيتي من مواجهة الفراق ، خشيتي من مرور السنون ، فقلت لك :

ـ يا فاتحة كل خير في حياتي ، يا زهرة روحي وبلسم أدوائي ، إن الحب إحدى كلمتين هما : ميراث الإنسانية ، وهدية التاريخ .

***

إن من أحب ورأى حبيبته من فرط إجلاله إياها كأنها خيال ملك يتمثل له في حلم من أحلام الجنة ، ورأى في عينيها صفاء الشريعة السماوية ، وفي شفتيها احمرار الشفق الذي يخيل للعاشق دائماً أن شمس روحه تكاد تمسي ، ورآها في جملة الجمال تمثال الفن الإلهي الخالد الذي يُدرَس بالفكر والتأمل لا بالحس والتلمس فأطاعها كأنها إرادته ، واستند إليها كأنها قوته وعاش بها كأنها روحه ، فذلك هو الذي يشعر بحقيقة الحب ويفهم معناه السماوي ، وهو الذي يقول لك صادقاً مصدوقاً :

ـ إن كل لفظة من لغة الطبيعة تسير في معنى الحب كأنها صلصلة الملك الذي يفجأ الأنبياء بالوحي في أول العهد بالرسالة (*) !!

ولم يكن الجمال الذي يرضيني في حبيبتي ـ ناهد ـ هو ذلك الجمال الوصفي الجسدي ؛ فليس كل ما يعجبك يرضيك ، ولكن كل ما يرضيك يعجبك ، فالجمال الوصفي الذي يقاس بالنظر ويخرج منه الفكر بنسبة هندسية ، جمال صحيح وحري أن يكون معجباً ، ولكنه على كل حال بناء جسمي كالقصر المشيد الذي يعجب الفقير المعدِم فيتمناه ، فإن هو صار له خالياً لم يُرضِه ، لأنه لا يلتحف سقوفه المموهة ولا يفترش أرضه الموطأة ولا يلبس جدرانه الموشاة ولا يقتات من هوائه الطلق ، أمّا الجمال الذي يرضي فهو الذي يشفُ عن صورة روحك بغير ما يخيلها لك ماء الحياة العكر ، هذا الذي لا يشفُ عن شئ ولا يزال يضطرب فيجعل شبحك في اختلاطه كأشباح البهائم يُخلق كل منها خلقاً جديداً كلما

(*) حديث القمر : مصطفى صادق الرافعي .

ضربت البهائم في الماء بأرجلها ـ فترى من ذلك الجمال كأن مَلكاً هبط عليك من السماء وفي يده مرآة فنظرت صورتك بعينها ولكنها في يد ملك (*) .

وأكثر من ذلك ..

إن الشاعر ليكتب عمن يحبها فيرى كأنه ينفخ في كل كلمة معنى من الحياة لأنه لا يكتب كلاماً بل يخط صورة قلبه ؛ والعواطف الحية تبقى حية ولو كانت مرسومة لأنها لا تجتمع في شكلها الذي تنتهي إليه إلا بعد أن تمر في أدوار الحياة فتألفها الأرواح وتصير كاللفظ المأنوس : ما هو إلا أن يُذكر حتى ترى معناه للذهن ماثلا ، فهل تعلم أيها السامع الآن ، من أحببت ؟ لقد أحببتُ ظلاً ملائكياً حانياً ، أحببتُ شعاعاً من نور أو طيفاً من النعيم .

خلوتُ بها للمرة الأولى فحدثتني نفسي أن أمدَّ يدي إلى يدها فأضعها على صدري لأطفئ بها غلتي ، فما لمستها حتى نظرتْ إليّ نظرة العاتب اللائم ، وقالت :.

ـ كن رجلاً في حبك واترك الطفولة لغيرك ، إن كنت تحبني لنفسي ، فها أنت قد ملكتها عليّ وأحرزتها دوني حتى لا أعرف لي فيها مأرباً ، وإن كنت تحبني لهذه الصورة الجسمانية فما أضعف همتك وما أصغر نفسك ، أنت شريف في نفسك فكن شريفاً في حبك ، واعلم أني ما أحببتُ غير نفسك فلا تحب غير نفسي .

فقلت لها آسفاً منزعجاً :

ـ لا تلوميني يا مهجة نفسي ؛ فقد برّح بي الهوى ولعب بقلبي الغرام ، لقد تحولت الصداقة في قلبي إلى حب جارف عميق ، وللحب شأن غير الصداقة وحال غير حالها وشعور وإحساس غير شعورها وإحساسها، لقد كنت أشعر لأخي خالد بضغينة وكراهية شديدتين فأصبحت لا أشعر بما كنت أشعر به من قبل ؛ لأن الحب ملك عليّ قلبي واستخلصه لنفسه ، فلم يترك فيه مجالاً لشئ سواه .



(*) السابق نفسه.

كنت ضيق الصدر إن مسني ضر ، سريع الغضب أن فاتني مأرب ، فأصبحت فسيح رقعة الحلم لا يستفزني غضب ، ولايحرجني محرج ، لأني قنعت بسعادة الحب ، فأغفلت بجانبها جميع أنواع السعادة .

كنت شديد القسوة متحجر القلب لا أعطف على بائس ، ولا أحنو على ضعيف ، فأصبحت أشعر بالمصيبة أراها تصيب غيرها وأتألم لبؤس البائسين وحزن المحزونين لأن الحب أشرق في قلبي ، فملأه نوراً فارتفع ذلك الستار الذي كان مُسْبَلاً بينه وبين القلوب، لقد كنت وحشاً ضارياً أعيا العالمين رياضتُه فصرت بين يدي الحب الشريف إنساناً شريفاً وملكاً كريماً .

ومن عجبي اني احنُّ إليهم واسأل قلبى عنهم وهم معي
وتبكيهم عيني وهم بسوادها ويشكو النوى قلبي وهم بين أضلعي

ادخلي حياتي واملأي كل فراغها تنعمي بما انطوى عليه فؤادي البكر من هوى فياض ادخرته لك من زمن بعيد وأحكمت إغلاق قلبي عليه ، وها أنا الليلة أسلمك مفتاحه .

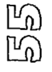
فأطرقت على استحياء وهتفت :

ـ أنا كم أتصاغر نفسي بجانب حبك الكبير يا يوسف .

ـ ولِم يا ناهد ؟ إنه أنت الذي أريد ، وما هو إلا قول فصل يخرج الآن من شفتيك ، حتى أسقيك من الحب كؤوساً مترعة وأذيقك من السعادة أفانين وألواناً.

ليس العجيب أني أطلب حبك ويدك ، إنني أحبك ، أحبك حباً ليس لأنسام البحر دخل في ابتعاثه ، ولا لهذه الليلة المقمرة يد في اجتلابه ، ولا لهذه الموسيقى المحمومة أثر في إزجائه ، فقد عهدته حباً مقيماً صامداً للعواصف والأنواء ، وتأجج في الثغر وفي العاصمة على السواء(*) .

وطالت جلستنا ، فسألتها والنسيم يداعبنا بحنان :



(*) النظرات : مصطفى لطفي المنفلوطي . (بتصرف)

- هل تشعرين بالسعادة التي أشعر بها ؟.
قالت :
- لا ، لأني أعرف من شئون الأيام وأطوارها غير ما تعرف ، ولأني لا أنظر إلى الدنيا بالعين التي تنظر بها إليها ، أنت سعيد بالأمل ، وأنا شقية بالحقيقة الواقعة ، إن أمي ترفض ارتباطنا ، وها نحن في الجامعة الآن ولا نعرف لحبنا شاطئاً آمناً يرسو عليه إنك سعيد ، لأنك تظن أن سعادتك دائمة لا انقطاع لها ، وأنا شقية لأني أتوقع في كل ساعة زوالها وفناءها .

ولستُ بمفراح إذا الدهر سرَّني ولا جازع من صرفه المتقلب

إن استطعت أن تقف الشمس في كبد السماء وأن تحول بين الأرض ودورانها ، وأن تمنع الساكن أن يتحرك والمتحرك أن يسكن فاضمن لنفسك استمرار السعادة وبقاءها .
وهنا أمسكتْ عن الكلام وأطرقتْ برأسها طويلاً فرأيت مدامعها تنحدر من مقلتيها ، فبكيت لبكائها ، وقلت :
- لم تبكين ؟ .
قالت :
- من خوف الفراق .
قلت :
- فراق الحياة أو فراق الممات ؟ .
قالت :
- لا أريد فراق الممات فإنه لا مفر لمخلوق منه (أحبب من شئت فإنك مفارقه) ولكن أعني فراق الحياة فربما كان هذا اللقاء آخر العهد بيننا .
فقلت لها بجزع والتياع :
- لا يكون هذا حتى تفارق روحي جسدي ، وإنني أعاهدك على أن نعيش معاً ونموت معاً ، هل تعاهدينني ؟ .
فتعاهدنا ثم عدنا على أعقابنا ، والليل يشمر أذياله للفرار من وجه النهار ، ثم افترقنا على ميعاد ، وذهب كل منا لسبيله .

عمري وعمرك دمعتان
الدمعة الفرحى لقاء يجمع الأشواق
الدمعة الثكلى وداع
يخنق الأشواق .. يشطرنا فتنزف مهجتان
لِم يا زمان الخوف تأبى أن يكون لنا مكان
عنواننا ليل كئيب الوجه يخدعنا
ويسرق فرحة الأيام منا والأمان
ونموت في فرح اللقاء كما نموت مع الوداع
أيامنا طفل كلون الصبح مخنوق الشعاع
ووقفت عند الشاطئ الموعود أسترضي الزمان
صافحته .. قبلت في عينيه حلماً
عشت أحلمه .. وثارت دمعتان
وبكيت في فرحي وعانقت الزمان

وبدأت أبحث عن مكان
ضحك الزمان وقال في غضب :
- من قال إن الشاطئ الموعود يمنحك الأمان ؟
الشاطئ الموعود مثل البحر أمواجٌ وخوفٌ وامتهان
الشاطئ الموعود مقبرةٌ
فالشاطئ الموعود مقبرة تئن بها العظام
ماذا ستفعل ؟
هل نترك الأيام تسقط في شواطئ حزننا ؟
أيامنا في الموج أحلام نزفناها وضاعت بيننا

وجراحُنا في الشاطئ الموعود

بحر من دماء الخوف يسري حولنا

والآن نبحر في مرافئ دمعنا

لا تحزني ..

مازلت ألمح في حطام الناس

أزهاراً ستملأ دربنا

لا تحزني ..

إن صارت الدنيا حطاماً حولنا

فالصبح سوف يجئ من هذا الحطام

الصبح سوف يجئ من هذا الحطام (*)

***

(*) فاروق جويدة : الديوان .

(٣)

ـ أجمل البلاد حيث يقيم الأحباء وأحب بقعة حيث تطأ قدم الحبيبة .

ـ من يناقش الحب طويلاً يفقده .

ـ الحب المثالي لا يقبل أنصاف الحلول .

ـ ليس هناك ثروة في الدنيا تعادل ثروة الحب .

ـ عشرون عاماً فوق درب الهوى .

ولا يزال الدربُ مجهولا

عشرون عاماً يا كتاب الهوى

ولم أزل في الصفحة الأولى !!

***

تحدثت مع أشرف ، كان يعلم قبل أن أتحدث معه ، فناهد لا تخفي عنه شيئاً ، وأنا بدوري لم أكن بالخائن لصاحبه الوفي ، قلت له أني لا أستطيع الحياة بدون ناهد ، قال لي :

ـ حاول مرة أخرى مع أمي .

قلت له بيأس بالغ :

ـ ها أنا في نهاية عامي الرابع في الجامعة وقد تحدثت مع أمك مراراً وتقدمت لها رسمياً عشرين مرة بالضبط وهي مُصرة على موقفها الرافض لي ، لماذا ترفضني ؟ ، لماذا تحطم حبي على صخرة "لا" ؟ ، سامحني يا أشرف ، ليس أمامي إلا الحل الأخير لم يعد أمامي سوى الهروب بناهد والزواج منها بعيداً ، فهل توافقني على ذلك ؟ ، لو رفضت أنت لانهار كل شئ ، أنت الوحيد الذي سأضحى بكل شئ من أجله ومن أجل إرضائه ،ماذا تقول ؟ .

سكت أشرف هنيهة ثم التفت إليّ قائلاً :

ـ واللهِ لم أكن لأحرمك من حبك الذي عشت من أجله سنوات ، لكني سآمنك على عِرضي وشرفي وأستحلفك بالذي فطر السموات والأرض أن لا تخون الأمانة وتهتك الستر ، ولتعلم أن الله معك

يراك ومطلع عليك لا تخفى عليه بادرة من بوادرك ولا داخلة من دواخلك ، فاتق الله حيثما كنت وارع الله في أختي فإنها بين يديك وديعة ، والودائع حتماً تُرد إلى أصحابها .

- لا تؤمني على نفسي فأختك نفسي التي بها أحيا ورَوحي التي بها أستروح من عناء الدنيا وحُوبها ، سآخذها إلى القاهرة ونتزوج على الفور .

- بل أزوجكما هنا في الإسكندرية ثم تسافران إلى حيثما تريدان، حتى يطمئن قلبي ويشهد الله أن فراقكما عزيزعلى نفسي لكني سأتحمل البعد والشُقة إلى حين ، فإن بعد العسر يسراً .

وهكذا ، تواعدنا على اللقاء بعد امتحاننا الأخير في تلك السنة وذهبنا - أنا وأشرف وناهد - إلى المأذون وتم العقد بيني وبين ناهد ثم سافرنا إلى القاهرة حيث لا نعرف أحداً ولا يعرفنا أحد ، لكنّ الله كان معنا ومن كان الله معه كان مَلك الله في خدمته .

وملكتُ روحي بينِ ذراعي ، بعد تعب وشوق ، لكني حفظت الأمانة كما أوصاني أشرف ، فلم أفض الخاتم ولم أعتبرها زوجة كاملة لي حتى أرى ما تنجلي عنه الليالي والأيام ، وحتى أتزوجها - كما يريد أشرف - في بيتها معززة مكرمة وسط فرحة أهلها وذويها ، وكنت سعيداً بما حصلت عليه من فرحة ولم يكن ينغص فرحتي سوى شيئين : خوفي على أمي التي انفطر قلبها لغيابي ، وحزني لخوف ناهد الشديد من أبويها أن يفرقا بيننا بعدما منّ الله علينا باجتماع الشمل .

وكنت أصبر نفسي وأهدئ ناهد ليلَ نهار ، وبين الحين والآخر كنت أكلم أمي لأطمئن عليها ولأحاول ترضية أبي ، وأكلم أشرف لأعرف منه أخبار أهله .

لقد استقبلوا الخبر بثورة عارمة كادت تفتك بأشرف ، لكنه واجههم بشجاعة بالغة وقال لهم :

- أنتم من أضطررتموهما لهذا ، لولا تعسفكم في الرفض ما كان هروبهما وتنفيذهما ما أرادا بمنأى عن الجميع ، إنهما أحرار في

التصرف في حياتهما كما يشاءان ، ما فعلا جُرماً حين أحبّا بعضهما البعض فلولا الحب ما عاش شئ على هذه الأرض ! .

نجيءُ إلى الحياة وسوف نمضي
ودقات القلوب لها مشيئة
انا واللهِ عشتُ طريد عمري
وروحي اينما جنحت بريئة
احاسَبُ انني اخطات يوماً
وهذي الأرض جاءت من خطيئة ..!!(*)

وأخذ الطيبون يحاولون الإصلاح ، فجاءتنا رسالة شفهية من سيدة فاضلة تعرف ناهد وتعرفني ، قالت لنا :

- طالما عقدتما ارجعا وسيكون لكما ما تريدان بإذن الله .

فأبلغتها أن أهل ناهد يهددوني بالقتل ، وقلت لها :

- أنا لا أخشى الموت لكني أصبحت ولا هَم لي في الدنيا سوى ناهد وكل ما أرجوه لها السعادة وراحة البال ، فكيف نرجع وأنا أعرف بأنهم لن يرحموها لو رأوها مع ما عُرفوا به من قسوة معها ؟! .

وتقدم والدي ببلاغ إلى الشرطة يطلب فيه حمايتي من أهل ناهد وأخذ الضابط على والديهما تعهداً بعدم التعرض لي ، ورجعنا بأمر من والدي إلى الإسكندرية ، لكن أم ناهد رفضت دخولها إلى المنزل فمكثت عند عمها لكن زوجة عمها لم تتحملها ، فأقامت فترة عند عمتها ثم عند جدتها ، بعدما هدأ الجميع والدتها وأقنعوها بأنني صرت زوجاً لابنتها وأخبرها أشرف بأنه ما من قوة في الأرض ستجبرني على تركها ، حينها سلّمت للأمر الواقع ورفعت الراية البيضاء ، وأخذ الجميع يتعاونون على تجهيز شقتنا التي اشتراها لي والدي منذ زمن وأنا مازلت صغيراً ، وأخذوا يسارعون في إتمام مراسم الزواج حتى ينتهوا من هذا الأمر الذي علمت به الإسكندرية كلها ، لكني ما ندمتُ لحظة على ما فعلت ، فلولا حبي العظيم لناهد ما كنت فعلت شيئاً من هذا.

(*) فاروق جويدة.

ولقد حافظت عليها وهي معي كما ينبغي للرجل الحقيقي أن يفعل ، وبعد عذاب وصبر شديدين تم الزواج أخيراً وتحقق حلمي الكبير وزُفّت ناهد إليّ في شقتي المتواضعة .

هاتِ أسعدني ودعني أسعدك

قد دنا بعد التنائي موردُكْ

فأذقنيه فإني ذاهبٌ

لا غدي يُرجى ولا يُرجى غدكْ

***

(٤)

كيف يحوم القلب يوماً على

غيرِك أو يبغي هوى مع هواك

إن دموعي لم تدع لحظة

عيني ترنو لحبيب سواكْ

- حيث تكون الطهارة توجد الحياة ، وحيث تكون الحياة يوجد الحب ، وحيث يوجد الحب تكون السعادة .

- الحب الحقيقي لا يتم إلا بإسعاد المحبوب .

***

أتذكر الآن وأنا وحيد كئيب حالي مع ناهد أيامَ كنا سعداء ، كانت قصتنا قصة حب يسعد أي إنسان بسماعها لأنها تؤكد أنه لا حدود ولا منتهى لحجم ونوع العواطف التي يكنها إنسان لإنسان آخر ، قصة تسعد بسماعها حتى وإن لمْ تكن طرفاً فيها ، لأنك تتوحد مع المحبوب فتشعر أنك وُضعت في مصاف العظماء ، فمحبوبك يراك أجمل وأروع ما في الوجود ، يكفيه أن يكون بقربك ليحتويه ضياؤك كما يحتوي ضوء القمر الأرض وما عليها فإذا ابتعدت عنه أظلمت دنياه فصار شبحاً ، وأظلم داخله فصار كالموتى !! .

كانت ناهد تحكي عني لأصدقائها فتقول :

- يوسف عظيم كهرم ، لا يمكن أن تستوعبه إذا اكتفت عيناك بالنظر أفقياً أو تعلقت إلى أعلى ، لكي تستوعب عظمته لابد أن يميل عنقك إلى الوراء وكأنك تريد أن تقابل السماء بوجهك ، تمتلئ نفسك رهبة وإعجاباً بالنظر إليه ، ليست رهبة الخوف ، ولكنه الانبهار الذي يمزج الإعجاب بالرهبة ، إن انبهاري بيوسف مبعثه صفاته ، له صوت رقيق عميق ، مرح جاد ، صوت له



ملمس أسمعه بجلدي فتتحول المسام إلى آذان متلهفة يبثها حنان دافئ .
حين نتذكر إنساناً فإن صورته ترتسم في مخيلتنا ، ولكنني أتذكره بصوته ، إن صوته هو صورته ، فصوته هو فكره وأحاسيسه ، صوته هو ذكاؤه وطموحه ، صوته هو عظمته ، صوته هو الذي ينقل إلى كلمات حبه .
والكلمات لا تنبعث فقط من حنجرته بل أيضاً من عينيه ووجهه ويديه ، ولهذا فأنا أستطيع أن أراه وأنا مغمضة العينين ، أراه بملمس صوته ولهذا فهو لا يفارقني أبداً ، فأنا جزء منه يحتويني بشخصه ، وبذلك لا يستطيع أي إنسان أو أية ظروف أن تفصل بيننا حتى الموت ، بعد الموت سأمضى معه إلى العالم الآخر بفضل توحدي معه واحتوائه لي ، ومن يحتويك يكون هو الأكبر والأقوى والأعظم والأرحب ، وهو كذلك ، فهو أقوى مني وأكثر عقلاً وحكمة ، ولهذا فأنا بدونه أفقد إدراكي لذاتي ، أفقد معنى وجودي ، تتشتت نفسي ويتبعثر كياني ، لا أكون كاملة ولا أشعر باكتمالي كإنسانة ولا أدرك وجودي إلا إذا ظللت بجانبه دائماً .
هل تصدقون أنه معي في كل لحظة ؟! ، معي وأنا أمارس أي نشاط أو أي حركة خلال يومي ، هو أول من يستقبله عقلي وإحساسي بمجرد أن أفتح عيني في الصباح بعد نوم ، لا أشك أنه كان معي خلاله ، أتزين قبل أن أنام تهيؤاً للقائه في أحلامي ، أرتدي ثوباً للنوم يروقه ، أغرق فراشي بعطر يحبه ، أمسك بكتاب نلتقي فيه معاً بأفكارنا ، كل ليلة كتاب ، فهذا عشقنا المشترك ، ثم أبدأ النوم وهو في عيوني ، الأغنية التي يحبها أسمعها كل يوم ، حتى في عملي - حيث نعمل معاً مُدرسَيْن - من أعمل معهم يستطيعون أن يروه بوضوح في عينيّ ، لا يهمني أن أحرز نصراً أو مكسباً ، فكل شئ يتضاءل بجانبه ، فهو النصر العظيم والمكسب الكبير ، هو الفرحة !! .
حتى لو تعرضت لمشكلة ، يتضاءل تأثيرها وأقول : الحمد لله يكفي أنه موجود في حياتي وأنا موجودة في حياته .

المشكلة أو الكارثة الحقيقة أن يكون يوسف مريضاً أو في أزمة ، حينئذ تضطرب كل حياتي ، لا أستطيع أن أعمل أو أفكر أو أهتم بأي أحد ، أفقد شهيتي وأشعر بآلام في جسدي ، أذبل كورقة شجر انتزعوها من فرعها ، تتوقف حياتي كلها حتى يشفى أو تفرج أزمته ، فتعود لي حياتي ، أحلم له أن يكون أعظم وأعظم ، هو أول من يرى أي فستان جديد أرتديه ، ثم أحتفظ به لأنه صافح عينيه ، لا أعترف بأي فستان إلا إذا رآه ، فساتيني تكتسب قيمتها وجمالها من عينيه .

لا أمل لي في حياتي إلا أن أعيش معه بقية عمري ، سعادتي الحقيقة معه ، وهو بدوني لا يستطيع أن يعيش سعيداً .

يا فؤادي العمر سفرٌ وانطوى

وتبقتْ صفحة قبل النوى

ما الذي يغريك بالدنيا سوى

ذلك الوجه ، وذيّاك الهوى !!

كانت ناهد مدرسة وأنا مدرس ، بدأنا نحلم بعشنا السعيد ونحن طالبان ، وحققنا حلمنا ، وبدأنا نفكر في ميزانية عامنا الأول ، هي تتقاضى ٢٥٠ جنيهاً وأنا ٢٥٠ جنيهاً ، أي أن إيرادنا ٥٠٠ جنيه في الشهر ، ندير بها بيتاً أنيقاً ، ونرضي بها رغباتنا البسيطة ، نفقات الأكل والشرب والثياب والمواصلات والبوّاب والخروج في العطلات والماء والكهرباء ، وتبخرت الجنيهات الخمسمائة ، ومازلنا نكتب ونكتب .

وكان من الواضح أن واقعنا أكثر من إيرادنا ، وأننا أفقر من أن نبني العش الأنيق الذي فتحناه وعشنا فيه .

وبدأنا نفكر ، قلت لها :

- سوف أسافر إلى السعودية وأقضي عاماً في جدة ، أعود بعده وقد وفرت مبلغاً كبيراً ، فنكمل حياتنا وننجب .

ووافقت بعد تردد وهي تضغط على يدي في امتنان ، وذهبت إلى السعودية ، وبدأت أحترق وحدي ، لا من نار جدة ، بل من نار فراقها ، والفراق شجىً في القلب ، وغصة في الحلق لا تبرأ

إلا بالرجعة ، لقد كانت تغيب عن بصري يوماً فيعتريني من الهلع والجزع وشغل البال وترادف الكرب ما يكاد يأتي علي .

أراها داري في كل حين وساعة

ولكن مَن في الدار عني مُغيب

وهل نافعي قرب الديار وأهلها

على وصلهم مني رقيب رقيب

كصاد(*) يرى ماء الطوى بعينه

وليس إليه من سبيل يسيب

فيا حبيبة قلبي :

متى تشتفي نفسٌ أضربها الوجد

وتصقب دار قد طوى أهلها البعد

وعهدي بهند وهي جارة بيتنا

وأقرب من هند لطالبها الهند

بلى إن في قرب الديار لراحةً

كما يمسك الظمآن أن يدنو الورد

إن الرجل لا يحس (بالفانلة) على جسمه إلا في اللحظة التي يلبسها ، وفي اللحظة التي يخلعها ، أما في الساعات الطويلة بين اللحظتين وهي على جسمه فهو لا يحس بها ، إنها على جسمه تلامس جلده وتلتف حول صدره وظهره وذراعيه ولكنه لا يحس بها ولا يشعر بوجودها .

والمرأة بالمثل يحس بها وهو يشرع في الزواج منها في فترة التعارف والحب الأول والخطوبة وكتب الكتاب وشهر العسل ، فإذا لبسها تماماً (كالفانلة) وأحاطت بصدره وظهره وذراعيه فقد الشعور بوجودها وأصبحت مثل قطعة الأثاث في البيت يدخل كل يوم ليجدها في مكانها مثل المنظر الذي يطل عليه من نافذته

(*) كصاد : شديد العطش فهو صاد .

يثيره للمرة الأولى ثم يصبح عادياً ثم ينساه تماماً ، أما إذا فقدها يوماً شعر بأن نيران الوجد تكويه .

إن الزواج الذي يسمونه سعيداً ، الزواج الذي يدوم فيه الوداد وتنتظم فيه العلاقة بين الزوجين في سياق رتيب هادئ ، يفتر فيه شعور كل واحد بالآخر وينطفئ الوهج من قلب الاثنين .

إن الدوام قاتل للشعور ، لأن أعصابنا عاجزة بطبيعتها عن الإحساس بالمنبهات التي تدوم ، نحن مصنوعون من الفناء ولا ندرك الأشياء إلا في لحظة فنائها .

نشعر بثروتنا حينما تفر من أيدينا .

ونشعر بصحتنا حينما نخسرها .

ونشعر بحبنا حينما نفقده .

فإذا دام شئ في يدنا فإننا نفقد الإحساس به .

كيف تحافظ الزوجة على زوجها وتجعل حبه يدوم ؟ .

لا توجد إلا وسيلة واحدة ، أن تتغير ، وتتحول كل يوم إلى امرأة جديدة ، ولا تعطي نفسها لزوجها للنهاية ، تهرب من يده في اللحظة التي يظن أنه استحوذ عليها ، وتنام كالكتكوت في حضنه في اللحظة التي يظن أنه فقدها ، وتفاجئه بألوان من العاطفة والإقبال والإدبار لا يتوقعها وتحيط نفسها بجو متغير ، وتبدل ديكور البيت وتفصيله وألوان الطعام وتقديمها .

على الزوجة أن تكون غانية لتحتفظ بقلب زوجها شاباً مشتعلاً وعلى الزوج أن يكون فناناً ليحتفظ بحب زوجته ملتهباً متجدداً ، عليه أن يكون جديداً في لبسه وفي كلامه وفي غزله وأن يغير النكتة التي يقولها آخر الليل ، والطريقة التي يقضي بها أجازة آخر الأسبوع ويحتفظ بمفاجأة غير متوقعة ليفاجئ بها زوجته كل لحظة ، ليس أمامنا غير (زغزغة) أعصاب زوجاتنا وتقديم المشتهيات العاطفية من كل يوم لتحتفظ بهن وليحتفظن بنا .(*)

(*) مصطفى محمود .

وبدأت أرسل لها خطابات طويلة وأقول لها أني اكتشفت أن الحياة ليست ميزانية ولا أرقاماً وأن الفرق بين الخمسمائة والألفين ليس هو الشئ الذي يسعد وإنما الشئ الذي يسعد هو قلبان متحابان يعطف كل منهما على الآخر ، وأننا نستطيع أن نعيش سعداء بجنيهاتنا الخمسمائة ، وكانت خطاباتنا تفيض رقة وحناناً .

حبيبتي الحانية ..

بالأمس كنا ، وكان يجمعنا بيت واحد ، لا يكدر صفونا فيه مكدر ، واليوم نحن وبيني وبينك مئات الفراسخ لا تمس يدي يدك ولا تعبث أناملي بشعرك ، ولا أستنشق عبير أنفاسك ، ولا يرن صوتكِ العذب في جوانب قلبي ، ولا تضئ ابتساماتك الجميلة ظلمات نفسي ، ولا تلتقي أنظارنا في مكان واحد ، ولا تمتزج أنفاسنا في جو واحد ، فلا السماء صافية كعهدي بها ، ولا الجو باسم طلق كما أعرفه ، ولا الماء صاف عذب ، ولا الهواء رقراق ولا الروض متفتح عن أزهاره ولا الزهر متنفس عن عبيره كأنما كنتِ سر الجمال الكامن في الأشياء فلما خلت منك أقفرت واقشعرت ونبت عنها العيون والأنظار.

قد أحزنني كثيراً ما تكابدينه من الآلام والأحزان من أجلي ، ولو كُشف لك من أمر نفسك ما كُشف لي منها ، لعرفتِ أنك أسعد مني حظاً وأروح بالاً ، لأنك تعيشين في المواطن التي شهدتْ سعادتنا وهناءنا والتي نبتت في تربتها آمالنا وأحلامنا ، فكل ما حولك يذكرك بحبك وأيام سعادتك ، أما أنا فكل ما حولي غريب عني ، أنكره ولا أكاد أعرفه ، كأنما هو مؤتَمِرٌ بي أن ينتزع مني ذكرى تلك الأيام الجميلة التي قضيتها بجانبك وهي كل ما أصبحت أملكه من بعدك .

سأكون شجاعاً كما أمرتِ يا ناهد وسأبذل جهدي في تذليل كل عقبة تقف في طريق سعادتي بك فاكتبي إليّ كثيراً وحدثيني عن كل ما يحيط بك من الأشياء وما يعرض لك من الشئون صغيرها وكبيرها لأجد على البعد عنك لذة القرب منك ، واجعلي حبك عوناً لي على مقاصدي وآمالي ، فحبك هو الذي يحييني وهو الذي من أجله أعيش وأبقى .

***

(٥)

ـ الوفاء شريك الكرم ، والغدر شريك اللؤم .

ـ لا ظالم إلا سيُبلى بأظلم .

يا دار ليلى زمانُ الغدر علمـــنا	بالخوف نحيا وفي الأحباب نرتاب
قالوا قديماً وفاء العهد شيمتنا	وقد غدرتم فهل للغدر أرباب
هذا أخي يستبيح الفجر في وطني	أحلامنا البكر في كفيه أسلاب
هذا أخي في حنايا القلب يسكنني	فكيف تسكن وسط القلب أنياب

***

أمضيت ما يقرب من عام في كد ونصب لا أرتاح من عناء العمل إلا قليلاً لأكل أو منام ، والرسائل تتوالى بيني وبين ناهد ، لكني مع مرور الشهور لاحظت في خطاباتها ما جعلني لا يهدأ لي بال ولا يغمض لي جفن ، لاحظت أن أخي خالد بدأ يزورها وهي في بيت أهلها كثيراً ، وأنا لا آمن خالداً على أي شئ يخصني فهو لا دين له ولا أمانة ، ثم إنه يغار مني بشدة ويحسدني على كل ما يقع تحت يداي ، فكيف آمنه على زوجتي ؟ .

أمرت ناهد ألاّ تذهب للشقة بمفردها حتى لا يراقبها خالد ويفاجئها هناك ، ووعدتني ألا تفعل ، لكني كأنما كنت أقرأ الطالع وأطلع على الغيب ، لقد ذهبت ناهد إلى الشقة مضطرة بمفردها ففاجأها خالد هناك وجلس معها ما حلا له أن يجلس ، كانت لا تطيقه ، فإذا بها بعد تلك الجلسة تقبل مسامرته ، يزورها في بيت أهلها وتنزل معه لزيارة أهلي ، ويجلسان أمام أبي وأمي يتحدثان ما بدا لهما ، وطال الأمر وزاد عن حده حتى بعث لي أبي بخطاب يخبرني بما يحدث ، فقطعت عملي وعدت ، وقابلتني مقابلة فاترة على غير ما كنت أتوقع من خطاباتها الحارة ورسائلها التي تذوب شوقاً ولهفة وحناناً ورقة .

وصارحتها بحقيقة ما بلغني من حديث ، فكذبت ظنوني وشكوكي وادّعت أنه أخوها كما هو أخي وأنها لا تحب سواي ولا تفضل أحداً عليّ مهما حدث ، فقلت لها بأني لن أعود للسعودية بعد ذلك ، فبهتت من قراري وقالت لي :

- كيف سنبني حياتنا إذن وكيف سنعيش ؟ .

فقلت لها :

- إذن ستأتين معي إلى السعودية ، فرفضت بشدة وادّعت بأنها لا تستطيع أن تترك عملها في المدرسة حفاظاً على مرتبها ومعاشها بعد ذلك .

وصدمت من ردها وعرفت أن شكوكي فيها وفي أخي في محلها ، ولقد استطاع أن يسلبها مني وأن يسلبها عقلها ، استطاع أن يلعب بمشاعرها وقلبها ويحوله عني ، لكنها ليست طفلة غريرة ، وليست امرأة بلهاء يُضحك عليها ، بل إنها معروفة بالفطنة والذكاء ، لكن كل ما أستطيع قوله عنها إنها غدرت بي وهدمت كل ما كان بيننا من حب طوال سنوات سبع ، نسيت كل ما قالته لي عن الحب والعطاء ، وما وصفتني به للناس من عذب الخصال وجميل الصنائع وأخذتها دوامة العشق الحرام وأغفلت ما كان بيننا من مودة وغرام ، فتباً لها من زوجة نكِدة ، وهذا الأخ اللئيم الأثيم ، ألم يجد غير أخيه ليخونه مع زوجه ، ألم يجد مكاناً يَعصى الله فيه إلا بيت أخيه المسكين الذي لم يكن له في الحياة حلم إلا تلك الزوجة التي دنسها بعد طهر وعفة ؟، ها هو قد أكل الحسد قلبه حتى أخذ مني كل شئ ، حتى الزوجة التي أحببتها وأحبتني .

وقررت أن أطلقها فإن الشك إذا دخل علاقة أفسدها ، وطلقتها وقد أكد لي شكوكي أنها لم تحزن على فراقي وطلاقها مني ، بل لقد تزوجا بعد فوات عدتها مني بأيام قليلة .

وسافرت إلى السعودية نادماً على كل كلمة حب قلتها لها آسفاً على كل لحظة جميلة قضيتها معها ، لكني - مع شديد الأسف - لم أنسها ، إن حبها مازال عالقاً بقلبي متمكناً مني ، وأنا الآن على

فراش المرض أتألم من وجعي المستمر في أمعائي ، وأتألم لفقد تلك الحبيبة التي تتمتع الآن بحياتها مع رجل سواي ، وأتألم من سكين الغدر التي غرزها أخي وزوجتي في صدري فقتلا فيَّ كل رغبة في الحياة وكل أمل في هدوء النفس وسكينتها ، إنني أعالج الألم وأكابد الحسرات ، إنني الآن حطام رجل وبقايا إنسان ، هاكَ يا موت روحي فاقبضها .

لماذا يثير فينا الموت المخاوف ؛ ونحن نرى حياتنا نفسها إن هي إلا دفن مستمر لأجزاء من ماضينا وشخصيتنا وتجاربنا وأحبائنا وحالاتنا النفسية ؟! .

إن كل ما في الحياة يضعنا وجهاً لوجه أمام الموت ، لكننا مع ذلك نتجنب الحديث عنه ، حتى المحتضر نفسه وهو على فراش الموت قد لا يحب أن يسمع كلمة الموت !! .

وأذن الله لي ـ رغم كل ما أعانيه ـ أن أبْلّ من مرضي وأن أشفَ من هواجسي بفضل ذكره سبحانه : {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ} (١٥٢) البقرة ، {وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا} (٨٢) الإسراء ، وقد داومت على ترديد قوله تعالى : {فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ} (٤٤) غافر ، وأنهيت عقدي وسافرت إلى بلدي الإسكندرية يأتيني أبي وأمي في شقتي ولا أذهب إليهما حتى لا أقابل ذلك الأخ المستهتر بأعراض الناس الواقع في حرمات الله المقارف للمعاصي والآثام ، وسمعت منهما كيف أنه يعامل ناهد معاملة قاسية كلها ضرب وتوبيخ وتعنيف حتى أن الجيران يتدخلون لتخليصها من بين يديه يومياً ، وتشتكيه هي في أقسام الشرطة دوماً وفضائحهما قد ملأت البلد ، فحمدت الله أن أخذ لي بحقي ، لا شماتة ولكنه انتقام الله من هذين الغادرين ! .

وأنهت ناهد حياتها مع ذلك اللئيم بيديها ، لقد قتلت نفسها ، أجل ، لقد انتحرت لتنهي بؤسها وشقاءها الذي لا ينتهي ليلاً ولا

نهاراً ، شربت السُم الزعاف وقضت على حياتها ، وماتت وَهي تهتف باسمي راجية إياي أن أسامحها وهذا من غريب أقدار الله .

إن الانتحار منتهى ما تصل إليه النفس البشرية من الجبن والخور وما يصل إليه العقل من الاضطراب والهوس ، وأحسب ألا يقدم الإنسان على الانتحار وفي نفسه ذرة من العزم أو في عقله لمحة من الحزم أو في قلبه مثقال خردلة من تقوى أو إيمان.

إن فكرة الانتحار نزغة من نزغات النفس وخطرة من خطرات الشيطان ، فمن حدثته نفسه بقتل نفسه فليتمهل ريثما يتبين كيف يكون صبره على احتمال سكرات الموت وآلام النزع ! وكيف يكون حديث الناس عنه بعد موته ؟! وهل يمكن أن يوجد بينهم عاذر له ، أو ساكت عن ازدرائه واحتقاره ، ورميه بالعته والجنون ؟! وليستحضر في مخيلته أشكال العذاب وألوان العقاب التي أعدها الله في الدار الآخرة لأمثاله ، ثم لينظر أيرتكب جريمة الانتحار ؟ ، لا أظنه بعد ذلك فاعلاً إذا كان معدوم الإيمان أو بطلاً من أبطال البيمارستان !! (*)

***

وها أنذا أحيا بعد ناهد ، أجوب كل طريق مشيته معها ، وأتذكر كل همسة صدرت منها ، لقد سامحتها بعد ما عرفت من أختها أن أخي أوقعها وقهرها عن نفسها في شقتنا حين فاجأها هناك بمفردها ، لهذا لم تخبرني بشئ حتى لا تفجعني في أخي وتفرق شمل الأسرة وحتى لا تفضح نفسها قبل كل شئ ، لهذا لم تعترض على الطلاق لأنها شعرت بأنه ينبغي عليها ألا تخدعني ، وآثرت أن تتزوج بمن أخذها عنوة حتى تخفف من وقع المهانة على نفسها ولم تستطع أن تحيا معه بعد ذلك لبغضها الشديد له ، لقد دمر حياتها وحياتي وحطم أحلامها وأحلامي ، رحمة الله على حبيبة فؤادي وثمرة حياتي وأرجو الله أن يغفر لها ما فعلته بنفسها فهو سبحانه سبقت رحمته غضبه ، وهو سبحانه يعـــلم

(*) المنفلوطى فى نظراته .

خبايا النفوس وبواطن الصدور .
أما ذلك الأخ الأشير فقد وقع في شر أعماله ، إذ مات في حادث سيارة ولم يجد من يترحم عليه ، حتى أبواه كان قد كرهاه بعدما عرفا من قبيح فعاله مع ناهد وغيرها ، والحمد لله المنتقم الجبار الذي قال في مُحكم تنزيله :{وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ } (٤٢) إبراهيم .
وأما أنت يا ناهد ، يا حبيبة الفؤاد فسأظل أذكرك مادام الليل والنهار وما تعاقب الصبح والمساء ، وستظلين وأنت في عالم الأموات بهجة روحي وأنس قلبي وأنا في عالم الأحياء ، فعلى الحقيقة كلنا أموات أبناء أموات ، فاذكريني ما ذكرتك ولك مني كل حب ووفاء وسلام !! .

***

إن تكن من كل هـم خـاليا

فأنا قلبي جروح في جروح

او تكن من عهد نوح صابراً

فأنا دمـعي بالعناء يبوح

لا تسلني كيف روحي بقيت

فبأعماقـي هـنا آثار روح

***

سخرية الأقدار !

ساعيش رغم متاعبي وعنائي	كالنسر فوق القمة الشماء
أرنو إلى الشمس المضيئة آملا	أن ينجلي حزني بفضل دعائي
أن اعتلي عرش المحبة راجياً	حب الورى في الله خير دواء
وارى دموع الحائرين تبدلت	نغماً يعيد مسرتي وهنائي
لا المح الظل الكئيب ولا أرى	صور المهانة تستبيح حيائي(*)

***

منذ دخل المدرسة والصبية منه يهزأون ؛ ذلك بأنه ولد بلا والد .. أين والدك يا عبده ، أضاع منك كما تضيع أدواتك كل يوم ؟ ، أم خبأته عنك أمك ؟ ، قل لنا لا تخشَ شيئاً ، لن نتهكم عليك ، لن نوسعك صفعاً وركلاً إذا ناولت أحداً منا قذيفة من قذائفك .. وكان معهم بين موقفين : إما أن يقذفهم بالحجارة لأنه لا يجد رداً على تهكمهم ، وإما أن يهرب من أمامهم والدموع منسدلة على وجنتيه الحمراوتين ليجلس أمام المدفأة ليلاً في ليالي الشتاء القرّة يفكر في كلامهم وفي حاله وحال أمه المسكينة ، وإما أن يشرد بذهنه الصغير إلى حيث يسكن ذووه من أقارب أمه أو أبيه الذي لا يعرفه ولم يره أبداً لكنه يسمع اسمه فقط من أمه كلما دعت الله ليلاً - وقد ظنته نائماً - فقالت : اللهم لا تُمتني حتى تأخذ لي حقي من والد ولدي الضعيف الوحيد المسكين ، ولا تحرمني من نَسَمِ الحياة حتى أربي ولدي حتى لا يغدو يتيم الأب والأم ! .

وتمر السنوات وذوو الأم لا يسألون لأنهم تبرأوا منها بعد أن حملت سِفاحاً من ذلك الرجل الغني فتركوها وأهملوا شأنها وتناسوا أنها امرأة ضعيفة الحال منهبة لكل متهتك فاسق عرضة لأي زلة أو خطيئة لأنها أضحت ضجيعة الفقر والمذلة كسيرة النفس جريحة الفؤاد دامعة العين ، ومع كل ذلك أصبحت ذات ولد مكلفة به مسئولة عنه أمام الله لا يقوى كبدها على تحمل بكائه

(*) جميلة هادي الرجوي .

من جوع أو برد أو علة أو ذل .

وهي إلى جوار ذلك كله لا تحسن عملاً ولا تعرف بابُ مرتَزَق ولا تجد بين يديها سلعة تتاجر بها وتقتات منها فهي أبداً بائسة وكأنما هي الخِلال رقة وذبولاً ، تُسبل فضل مئزرها على مآقيها المُقرَّحة رأفة بولدها وهماً لنفس تعاني بين جنبيها وشغلاً بجواب لكل سؤال يقتحم عقل صغيرها يستفسر فيه عن أبيه وأهله وفقره وذله بين أقرانه .

وفي مقابل كل ذلك لا إحسان يخفف مآسيها ، بل هو إحسان في بلد لا تفقه معنى الإحسان ولا أولوياته فأعظم ما يتقرب به محسن إلى الله ويحسب أنه بلغ من البر والمعروف غايتهما أن ينفق بضعة آلاف من الجنيهات في بناء مسجد للصلاة في بلد مملوء بالمساجد حافل بالمعابد ، وفي البلد كثير من البائسين وذوي الاحتياجات ينشدون مواطن الصِّلات لا أماكن الصلوات ، أو يقف الرقاع الواسعة من الأرض لتنفق غلّتها على أقوام من ذوي البطالة والجهالة نظير انقطاعهم لتلاوة الآيات وترديد الصلوات وقراءة الأحزاب والأوراد ، وهو يحسب أنه أحسن إليهم ولو عرف موضع الإحسان لأحسن إليهم بقطع هذا الإحسان عنهم علّهم يتعلمون صناعة أو مهنة يرتزقون منها رزقاً شريفاً ، ولو أنصف المحسنون وعقلوا جوهر الإحسان لأنفقوا ما يجتمع من مال على تربية اليتامى الذين لا كاسب لهم ، والقيام بأود العاجزين والعاجزات عن الكسب وتفقد شئون الذين نكبهم الدهر وتنكّر لهم بعد العز والنعمة وصيانة ماء وجوههم أن تراق على الأعتاب ، والإنفاق على تعليم من يتوسم فيهم الذكاء والفطنة ويُرجى أن تنتفع بهم الأمة في مستقبلها من أبناء الفقراء إلى أمثال هذه الأعمال الخيرية الشريفة التي لا يتحقق الإحسان ولا ينصرف معناه إلا إليها .

إنني أعتقد اعتقاداً لا ريب فيه أن من يخطو الخطوة الأولى في سبيل هذا العمل الجليل ، ومن يضع الحجر الأول في بناء مجتمع الإحسان هو أفضل عامل في الوجود وأشرف إنسان .

ليت الرجال يتفقون جميعاً على أن يستنقذوا بالإحسان والرحمة والرأفة والحنان والشفقة كل امرأة ساقها فقرها وعدمها أو فقد عائلها إلى البغاء ، بل ليتهم يتفقون على الزواج منهن قبل أن تضيق بهن حلقات العيش فيسقطن في هاوية سحيقة من مهاوي الرذيلة والفاحشة ، لم لا يكون باباً من أبواب الإحسان أن يتفقد المحسنون من الرجال الفقيرات من النساء فيتزوجوا منهن أو يزوجونهن من أولادهم وأقربائهم وإن لم يكنّ من ذوات الجمال أو ذوات النسب لأنه إحسان والإحسان لا يَجْمُلُ إلا إذا أصاب موضعه من الشدة ومكانه من الشقاء .

العِرْضُ أثمن من الحياة فإن كل من يمنح الحياةَ فاقدَها شريفاً فأشرف منه من يرد العِرض الضال إلى صاحبه المفجوع فيه ، لكنّ رجل تلك المرأة لم يكن يعرف الإحسان ولا يدرك أي معنى من معاني الرجولة والنخوة والشهامة والنجدة والكرامة ففعل فعلته وهرب من تحمل تبعاتها ونجا من قصاص المجتمع لأنه غني من الأغنياء وثري من الأثرياء ونبيل من النبلاء إذا قصدنا بالنُبل هنا نُبل الثروة والجاه العريض لا نُبل الأخلاق وسمو المبادئ والفضائل .

البغاء للبغي شقاءٌ ما جناه عليها إلا الرجل ، فجدير به أن يغرم ما أتلف ويصلح ما أفسد ، يهجم الرجل الغني على المرأة ويعد لمهاجمتها ما شاء الله أن يعده من وعد كاذب وقول خالب وسحر جاذب حتى إذا خدعها عن نفسها وغلبها على أمرها وسلبها أثمن ما تملك يدُها نفض يده منها وفارقها فراقاً لا لقاء بينهما من بعده.

هنالك تجلس في كِسر بيتها جلسة الكئيب الحزين مُسبلة دمعها على خدها مسندة رأسها بكفها تفلي أناملها التراب لا تدري أين ذهب ولا ماذا تصنع ولا كيف تعيش ! .

تطلب العيش عن طريق الزواج فلا تجد من يتزوجها ؛ لأن الرجل يسميها ساقطة ، وتطلبه من طريق العمل فلا تجد ما تحسنه منه لأن الرجل أهمل شأنها فلم يعلمها من العلم ما تستعين

به على ضائقة العيش ، وتطلبه من طريق التسول فلا تجده لأن الرجل يؤثر أن يمنحها القنطار حراماً على أن يمنحها الدرهم حلالاً ، فلا تجد لها بداً من أن تطلبه من طريق البغاء .

فها أنت ترى أن شقاء المرأة الساقطة رواية من الروايات المحزنة وأن الرجل هو الذي يمثل جميع أدوارها ويظهر في كل فصل من فصولها ، إن أبى الرجل أن يتزوج المرأة بغياً فَلْيَحُل بينها وبين البغاء ، ولا سبيل له إلى ذلك إلا إذا اعتبر الزواج باباً من أبواب الإحسان ، أي أن يتزوجها لها أكثر مما يتزوجها لنفسه ، وأحق النساء بالإحسان أولئك اللاتي لم يرزقهن الله الجمال والمال والحسب والنسب ، فإن أبي إلا أن يتزوج المرأة السعيدة فليعلم أنه هو الذي أخذ الشقية من يدها وساقها بنفسه إلى قرارة الشقاء ورماها بيده في هُوّة الفسق والبغاء .

ويسأل عبده أمه المسكينة :

ـ أين والدي يا أماه ؟ .

فتجيبه وقلبها ينفطر حزناً عليه :

ـ يسكن بعيداً عنا يا ولدي ولا أستطيع أن أذهب إليه .

ـ لماذا يا أماه ؟ ، كل أصدقائي يأتون إلى المدرسة بصحبة آبائهم فلم أنا من بينهم المحروم ؟! .

ـ لقد تركنا والدك وأنت مازلت في أحشائي ، فله زوجة وأبناء آخرون يحنو عليهم وينفق من أجلهم جُلّ ماله ويسهر على راحتهم ويطمئن على صحتهم ويتابع أحوالهم .

ـ ولماذا لم يتزوجك أنت يا أماه ؟ .

ـ حين تكبر يا ولدي سيدرك عقلك القاصر كل ما يتعنى عليه إدراكه وفهمه الآن فلا تتعجل الغد فإنه قاسٍ عليك ! .

ـ ومن يأتينا بالمال الآن يا أماه ومن ذلك الشيخ الذي يزورنا بين الفينة والفينة ؟ .

ـ إن ذلك الشيخ هو الوحيد الذي عرف بأمرنا وسلك الإحسان الطريق إلى قلبه ووضعته الأقدار في طريقنا رحمة من الله بحالنا

ومِنّة َمنه علينا ، فهو يحنو علينا وينفق بعض ماله على احتياجاتنا ، ولولاه بعد الله لهلكنا مسغبة وجوعاً وفقراً .

***

وتمر السنون وينمو الصغير ذو السنوات الست ليصبح في الرابعة والعشرين ، وتشيخ الشابة فتصبح سيدة في الخامسة والخمسين ، تنظر إلى الحياة نظرة مودع بينما يستقبل ولدها دنياه بقلب شيخ خبر السنين وعاشر الأيام وهو بعد في ريعان الشباب فالهم يضيع شباب القلب ويكسر حدة عنفوانه ، وكيف يا ترى يكون شاب نما وشب ليجد نفسه وأمه منبوذين من المجتمع بأسره فقيرين لا يعيشان ألاّ بمعونات بعض المحسنين الذين لم تعدم الرحمة إلى قلوبهم سبيلا ، وحيدين بلا أقارب أو جيران أو أصدقاء .

إلا أن الرحمة الإلهية والعدل الإلهي لا يحرمه من كل شئ ؛ فقد أعطاه عقلا َحافظاً وذهنا متوقداً وتفوقاً دراسياً حتى أعجب به كل مدرسوه في جميع مراحل تعليمه وأهّله ذلك ليشغل وظيفة رفيعة في ديوان المحاسبات ، جعله ذلك ينظر إلى الدنيا نظرة جديدة بعد أن بدأ يقبض مرتباً شهرياً متوسطاً يكفيه وأمه مؤونة السؤال ويقيهم شظف العيش الذي صاحبوه طويلا َكما هيأ له القدر رفيقة في عمله شاركته همومه ، واستأثرت بمكانة في قلبه فغدا معافى في بدنه آمناً في سربه عنده قوت يومه - كما جاء عن الرسول صلى الله عليه وسلم - فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها !! .

فإذا ما خضنا المسافة الكبيرة الواقعة بينه وبين أخويه نجدهما على النقيض منه ، قد لعبت بهما يد الزمن فبدلت حالهم إلى أسوأ حال ، أما الوالد فقد مات بعد أن خسر كل ثروته فوق موائد القمار ، وأما الأم فهي كسيحة إثر صدمات الحياة فاقدة الوعي معظم الأوقات وأما عنهما فقد باتا وأصبحا ليجدا نفسيهما أسيري الديون رهيني الاعتقال في أية لحظة بسبب انحرافهما وسوء خلقهما وكثرة موبقاتهما .

وقد يتعجب المرء أحياناً من تصاريف القدر حين يرى الأمور قد انقلبت رأساً على عقب ، لكن ما حدث لهو أبعد من أن نقول : إنها تصاريف الأقدار ، لأن ما حدث لهما مع أخيهما الوحيد المتفرد الصابر المثابر ليعد من سخرية الأقدار بلا أدنى ريب !!.

كان يجلس في مكتبه في العمل حين دخلا عليه في حالة يرثى لها من الابتذال والذبول والشحوب والمذلة ، وبدأ هو في الحديث حين قال :

- هل من خدمة أستطيع أن أقدمها لكما ؟ .

فقال أحدهما :

- لو عرفتنا لدعوتنا إلى الجلوس أولاً ! .

- هل لي أن أتشرف بمعرفتكما ؟.

فقال الآخر :

- نحن ولدا عباس الفيومي ، هل تعرفه ؟ .

نظر إليهما في استنكار ودهشة وذهول ولم ينطق ببنت شفة للحظات ، إلى أن تمالك نفسه ثم دعاهما للجلوس قائلاً :

- تفضلا أرجوكما ، كيف عرفتما طريقي ؟ وأين والدي الذي لم أره أبداً ؟ لماذا لم يكن يسأل عليّ ، لماذا رماني وأمي وألقى بنا في عارضة الطريق كأننا علبة من علب سجائره الفارغة ؟ ، ولماذا لم تأتيا لي طوال السنوات الماضية ؟ ، ولماذا ...

- مهلاً ، مهلاً ، أمهلنا قليلاً وسنخبرك بكل شيء ، لقد أهلك الدهر والدنا كما أهلك الغابرين وسارت بنا الدنيا إلى ما ترى من رثاثة وعوز فجئنا إليك بعد أن سألنا عن مكانك وعرفنا أنك تعمل في ديوان المحاسبات وبإمكانك أن تساعدنا في صرف معاش والدنا لنا فقد كان يعمل في نفس مكانك منذ سنوات طويلة لكنه استقال وفضل الأعمال الحُرة وربحت تجارته واهتدى إلى أمك فأحبها لكنها كانت من بيئة فقيرة فلم يَرضَ والده أن يزوجه منها فنسيها - والأيام تُنسي - وتزوج من أمنا ذات الأصل والحسب والنسب ، ومرت السنوات فافتقر واستدان وباع أملاكه كلها فلم يبق لنا إلا الفيلا التي نعيش فيها ونحن في سبيلنا لبيعها الآن .

- إذن لم تأتوني رغبة في معرفتي أو طلباً لصلتي كما توقعت في البداية .
- أعذرنا فنحن في أسوأ حالة يمكن لك أن تتخيلها ، إننا لا نجد قوت يومنا إلا بالكاد ، لم نكمل تعليمنا بسبب تدليل أمثالنا فامدد يدك بالمعونة وأحسن إلينا أحسَن الله إليك ! .
- هلاّ أعطيتماني عنوانكما ؟ سأفعل ما بوسعي لمساعدتكما ، غفر الله لأبي فقد قطع ما بيننا ، طالما تمنيت أن أعرفكما وأشعر بوجودكما في حياتي ، لم أكن أرجو من والدي مالاً وجاهاً وإنما كنت أحتاجه عوناً لي في الشدائد وذخراً لي في مواقفي كلها ، إنني أشعر بآلامكما الآن فقد عانيتها طويلاً أما الغني الذي لم يذق طعم الفقر في حياته فقلما يشعر بآلام الناس ومصائبهم أو يعطف على بأسائهم وضرائهم ، فإن حاول يوماً أن يمد يده بالمعونة إلى بائس أو منكوب فعل ذلك متفضلاً ممتناً لا راحماً ولا متألماً .
إن الألم هو الينبوع الذي تتفجر منه جميع عواطف الخير والإحسان في الأرض ، وهو الصلة الكبرى بين المجتمع الإنساني والجامعة الوحيدة التي تجمع بين طبقاته وأجناسه بل هو معنى الإنسانية وروحها وجوهرها ، فمن حُرمه حُرم كل فضيلة من فضائل النفس وكل مكرمة من مكرماتها وأصبح بالصخرة الصلدة أشبه منه الإنسان الناطق .
لقد أساء لكما كما أساء إليّ ، إنه أساء إليّ من حيث تنكره لي وجحوده لحقوقي عليه ، وتنكر لكما حيث أغفل النظر في شأن تربيتكما وتعليمكما ضناً بكما إن تزعجا نفسيكما بشئ من تكليف الحياة وأعبائها ظناً منه أن ذلك هو الرحمة بكما ولو أنه كان رحمكما رحمة حقيقية وأشفق عليكما إشفاقاً صحيحاً لرحمكما من هذا المصير المحزن .
- لكنّ الفقر يا أخي يدفع إلى الجرائم والقتل وارتكاب السرقات .
- إننا إذا استطعنا أن نفهم الجريمة بمعناها الحقيقي وألاّ ننخدع بصور الألفاظ وألوانها علمنا أن الأغنياء لهم جرائم كجرائم الفقراء بل أشد منها خطراً وأشد هولاً ، فإن كان بين الفقراء



واللصوص والقتلة وقاطعوا الطرق ، فإن الأغنياء المحتالون والمزورون والمغتصبون والخائنون والمداهنون والمماطلون وأصحاب الشركات الذين يغذون أجسامهم بدماء عمالهم ، والقـَوّام الأوصياء الذين يرثون التركات من دون وارثيها ويأكلون أموال اليتامى والمعتوهين باسم صيانتها والمحافظة عليها ، والسماسرة الذين يغتالون الأسواق بأجمعها ، والمرابون الذين يختلسون الثروات بأكملها ، والسياسيون الذين يسرقون الممالك بحذافيرها .

- لكنك عانيت من فقرك كما تقول فلماذا تدافع عن الفقر والفقراء ؟ .

- لا أريد أن أقول إن الغنى علة فساد الأخلاق وأن الفقر علة إصلاحها ، ولكن الذي أستطيع أن أقوله عن تجربة واستقراء إني رأيت كثيراً من أبناء الفقراء ناجحين ولم أر إلا قليلاً من أبناء الأغنياء عاملين .

إن العلوم والمعارف والمخترعات والمكتشفات والمدنية الحديثة بأجمعها حسنة من حسنات الفقر وثمرة من ثمراته ، وما المداد الذي كتبت به المصنفات ودُونت به الآثار إلا دموع البؤس والفاقة ، وما انفجرت ينابيع الخيالات الشعرية والتصورات الفنية إلا من صدوع القلوب الكسيرة والأفئدة الحزينة ، ولولا الفقر ما كان الغنى ولولا الشقاء ما وُجدت السعادة .

- يا أخي : أرى أن كل ما قلته درس حقيقي لنا ، لكنه للأسف جاء بعد فوات الأوان ، بعد أن خسرنا كل شئ .

- لا يا أخواى لم تخسرا كل شئ مازال أمامكما العمر بأكمله ، رأس مالكما الشباب تفعلان فيه المستحيل وتحولان به الفقر إلى غنى بإذن الله ، واعلما أن هموم الفقر على شدتها أقل هموم الحياة وأهونها.

وحسبك من السعادة في الدنيا ضمير نقي ونفس هادئة وقلب شريف وأن تعمل بيدك فترى بعينيك ثمرات أعمالك تنمو بين يديك وتترعرع فتغتبط بمرآها اغتباط الزارع بمنظر الخضرة والنماء

في الأرض التي فلحها بيده وتعهدها بنفسه وسقاها من عرق جبينه .

وأنا معكما لن أترككما أبداً ، سأبدأ معكما عهداً جديداً شعاره الحب والتآخي والكفاح ، ولكن أخبراني كيف عرفتما أن لكما أخاً ثالثاً هو أنا ؟ .

- أخبرنا والدنا ساعة احتضاره وأوصانا بك خيراً .

- للأسف ، هكذا الإنسان دائماً لا يعرف الحقيقة ولا يعطي كل ذي حق حقه إلا حين يرى الآخرة أمام عينيه ، ولكن ما فات فات والعبرة بما هو آت .

***

تـوبـة ونــدم !

قال الله عز وجل : " يا ابن آدم أنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي ، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي ، يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة " . رواه الترمذي وقال حسن غريب.

كنت في يوم إجازتي فمكثت في المسجد بعد صلاة المغرب لأتلو بعض آيات الذكر الحكيم وأذكر الله عز وجل ، حين لفت انتباهي بضخامة بنيانه وفتوته فأخذت أرمقه من بعيد فإذا به يتلو كتاب الله بصوت شجي حزين ودموعه منسدلة على وجهه وهو لا يفتأ يدعو الله رافعاً يديه إلى السماء متخللاً بدعائه قراءته للقرآن ، فأنهيت تلاوتي وذهبت إليه وأنا في شدة العجب من أمره فأنت قلما تجد خاشعاً في هذه الأيام فمعظم الناس منصرفون إلى اللهو والعبث مغترون بدنياهم الزائلة الحقيرة ناسون ربهم متغافلون عن أداء حقوقه ، دنوت منه ثم جلست في مواجهته فظلّ على حاله كأنما لا يراني ولا يشعر بوجودي البتة ، انتظرت طويلاً حتى توقف هنيهة عن التلاوة فقلت له :

- أتأذن لي أيها السيد .

فرفع رأسه ناظراً إليّ ففوجئت بوجهه ، كأنه شطران شطر أسمر كبقية جسده وشطر قد رسمت فيه كف بيضاء فأمسكت عن الحديث ولم أدر ما أقول من فرط دهشتي ، وكأنما قرأ الرجل في عينيّ ما يجول بخاطري فابتسم ثم قال :

- لا تعجب يا أخي من حال وجهي فهذه مشيئة الله ولو مررتَ بما مررتُ به لحدث لك مثل ما حدث لي وربما أكثر !!

- وما الذي مررت به أيها السيد المؤمن ، إني أرى النور يشع من جبينك وأرى عينيك مغرورقتين بالدموع الخاشعة لله ، فما الذي يمكن أن يصيب من كان في مثل تقواك وإيمانك وورعك ؟.

- لا تغرنك المظاهر يا أخي ، إنما أنا عبد حقير من عباد الله تائب لله واقف على بابه ذليلاً أرجو أن يفيض عليّ من رحماته وبركاته وأن يتقبلني في عباده التائبين .



ـ ومم كانت توبتك يا رجل ، ما الذنب الجليل الذي يُحدث في وجهك ما أرى ؟ .
ـ ذنوب العباد كثيرة يا أخي لكن ذنبي كان عظيماً جداً ، ذنبي أنني تماديت في الذنوب وأبيت الإقلاع عنها حتى أتتني صاعقة من صواعق الدهر .
ـ ما الذي أصابك يا سيدي ؟ .
ـ كنت أعمل رئيساً لعصابة من قطاع الطريق ، نقع على الضعاف كما يَقع الوحش على فريسته فنأخذ منهم كل ما معهم من أشياء ثمينة وبضائع غالية ونتركهم خاليي الوفاض مغلوبين على أمرهم ، فإن حاولوا مقاومتنا قتلنا منهم وسبينا ولا نعبأ بصرخات استعطافهم أو بكاء صغارهم ، فإذا فررنا بما معنا من غنيمة قصدنا مقابر البلدة التي نكون بجوارها فنختبئ فيها أياماً خوفاً من عيون الشرطة ولكي نقسم ما معنا من غنائم بيننا .
ـ لماذا سكت يا أخي ؟ .
ـ أتذكر أيامي الغابرة وأتأسف على ما فاتني من الأعمال الصالحة فما اغتنمت شبابي ولا صحتي وقد صرت إلى ما تراني فيه من كبر السن وكما يقولون الشباب قوة ، وأخاف سؤال ربي إن حاسبني فسألني عن شبابي فيما أبليت ، ماذا أنا قائل وبماذا سوف أجيب ،إن صدقت فإلى النار وإن كذبت فعليّ غضب الجبار.
ـ لقد تاب الله عليك يا سيدي فهدئ من روعك وكما ورد في الحديث : كفارة الذنب الندامة ، ولكن ماذا حدث بعد ذلك ؟ وكيف رجعت إلى طريق الله ؟ .
ـ سرقنا غنيمة عظيمة ذات يوم وكان قدري أن أمكث بها في المقبرة حتى يرجع لي أصحابي بغنيمة أخرى .
وبينما أنا في ظلام المقبرة وحدي إذ دخل قوم بميت لهم يدفنونه ويوارونه الثرى وكان من عادة أهل تلك البلدة أن يجعلوا الأموات في حجرات متجاورة نائمين فوق الأرض بجوار بعضهم فلا يلحدون لهم لحداً تحت الأرض ، وكان ما كان ، تركوا ميتهم وأغلقوا عليه الباب وانصرفوا دون أن يروني فقد قدر لي الله



أمراً شديداً كان واقعاً عليّ لا محالة ، وفجأة نظرت فوجدته قد قام فاستوى جالساً ثم أخذ يتمتم بشفتيه بكلام لم أسمعه ثم نام مرة أخرى ، ذهلت وأصابتني رجفة شديدة وفزع أشد فوضعت كفي على شق وجهي خوفاً وفزعاً ثم أخذت أبكي بكاء شديداً ولا تقوى رجلاي على الوقوف ومكثت على حالي تلك حتى جاء أصحابي ودخلوا عليّ فوجدوني في حالة هيستيرية فأخذوني خارج المقبرة وذهبوا بي إلى مسكني ولم يتركوني حتى هدأ روعي وبدأت أفيق من الصدمة فسألوني عما حدث فأخبرتهم وتنازلت لهم عن حقي في الغنائم على أن يتركوني في شأني ووعدتهم بأنني لن أبلغ عنهم الشرطة .

صدقوني وتركوني وانصرفوا فبقيت أياماً طويلة أفكر في حالي وفيما صرت إليه وانكببت على وجهي ساجداً لله مراراً وتكراراً داعياً إياه أن يرحمني ويعفو عني ويتجاوز عن سيئاتي الكثيرة واستغفرت ربي كثيراً ثم أخذت في الذهاب إلى المسجد كل صلاة حتى بات عليّ من العسير أن أترك المسجد فلم أعد أجد راحة إلا به ، وتصدقت بجميع ما أملك على الفقراء والمحتاجين كفارة عما جنت يداي عسى الله أن يتوب عليّ ويرحمني ، ومن يومها وأنا على هذه الحال يا أخي فادعُ الله لي أن يغفر لي ويسامحني ويحسن خاتمتي .

- الله تواب رحيم يا سيدي يقول عن نفسه جل وعلا : { قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) } الزمر ، ويقول صلى الله عليه وسلم : التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، ألم تعلم نبأ الفضيل بن عياض ؟ .

- ومن هو الفضيل بن عياض يا أخي ؟ .

- كان الفضيل بن عياض قاطعاً للطريق وكان يعشق جارية فواعدته ليلاً فبينما هو يرتقي الجدران إليها إذ سمع قارئاً يقرأ :

{ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ } (١٦) الحديد ، فرجع القهقري وهو يقول : بلى والله قد آن .

فأواه الليل إلى خربة فبات فيها فسمع جماعة من المسافرين يقولون : خذوا حذركم إن فضيل أمامكم يقطع الطريق ، فقال الفضيل : أوّاه ، أراني بالليل أسعى في معاصي الله ، قوم من المسلمين يخافونني ؟ اللهم إني قد تبت إليك وجعلت توبتي إليك جوار بيتك الحرام ، فصار عابداً تقياً ، وإني أراك في حالة حسنة مع الله يا سيدي فعسى الله أن يكون قد تاب عليك وغفر لك ما تقدم من ذنبك .

ـ أسأل الله ذلك يا أخي ، لقد تركت الدنيا بأسرها من أجل الله والله على ما أقول شهيد .

ومضت أيام تلو الأيام فانشغلت كما ينشغل الأنام ونسيت أمر ذلك الرجل الصالح حتى ذهبت إلى المسجد ذات يوم فإذا أمامي جنازة فسألت عن صاحبها فقيل لي إنها للرجل نفسه فحزنت عليه حزناً شديداً وسرت في جنازته وأنا أفكر في كل ما رواه لي فلما صرنا إلى قبره وضعناه وأهلنا عليه التراب وصار أحد الحضور يلقنه أجوبة الأسئلة التي يعرضها عليه منكر ونكير في نفس اللحظات ، من ربك ، ما دينك ، من ذلك الرجل الذي بُعث فيكم ، فصار يقول له : قل ربي الله ، ديني الإسلام ، نبيي محمد صلى الله عليه وسلم ، كل ذلك وأنا أبكي الرجل وأتمنى على الله أن يكون قد غفر له وسامحه ولقنه وثبته : { يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ } (٢٧) إبراهيم .

ثم تركنا المقابر وانصرفنا ، وهاهي الأيام تمضى حتى يقضي كل منا نحبه ويلقى حتفه فكلّ إلى لحده صائر وإلى الله المصائر فحسبنا الله ونعم الوكيل .. هو نعم المولى ونعم النصير .



من أكون ؟!!

كانت من المتصلات ببرنامج تليفزيوني يجيب عن تساؤلات المشاهدين الديني ، في الثالثة والثلاثين ، صوتها يحمل الكثير من الشجن والدموع ، ويوحي بأن صاحبته تعاني الكثير رغم سنها ، وكانت المفاجأة حين تكلمت ووضحت أسباب حزنها المكين .

إنها امرأة ، حديثاً ، أما في الماضي ، وبالتحديد منذ عشر سنوات وما قبلها ، فقد كانوا يعتبرونها رجلاً .

أجل ، لقد كانت ذكراً وأنثى في آنٍ واحد ، هكذا ولدت ورأتها أمها ولجهلها تركتها ، ظنت أن الغالب عليها الرجولة فيما بعد ، لم تعرضها على طبيب ، ولم تستشر ذوي الخبرة ، بل تركتها للأيام تفعل بها ما تشاء ، وتلك آفة الجهل .

ناقوس الخطر ، لاحظت الطفلة أن هناك أشياء في هيئتها مختلفة عن زملائها البنين ، ورفضت الذهاب إلى المدرسة ، وتذمرت الأسرة ، أجل ، لم يقتنعوا بشكواها وهم مقتنعون أنها ذكر لا عيب فيه ، أصرت على عدم الذهاب إلى المدرسة وهنا تدخل خالها وطلب من والديها أن يعرضاه على طبيب مختص ، وبعد محاولات مستميتة معهما ذهبا به إلى الطبيب الذي أثبت بعد فحوصات كثيرة أنها أنثى في الغالب ، وستكون أنثى كاملة بعد انتهائه من إجراء عملية مضمونة النتائج لها .

ورفضت الأسرة إجراء العملية ، وتركوا الطبيب وتجاهلوا رأي الطب وأخذوا في التنكيل بها (لتسترجل) ، ورغم بكائها واستماتتها في إقناعهم إلا أنهم لم يعيروها أدنى اهتمام .

ولم تجد بداً من ترك الأسرة وهي في الثامنة عشرة بعد أن سرقت من خزينة أبيها مبلغاً ضخماً يكفي لإجراء العملية ، وأبلغت خالها فوافقها على ما فعلته ، وذهب معها إلى الطبيب ووقف بجوارها حتى انتهت العملية وصارت فعلاً أنثى كاملة ، ومكثت في المستشفى شهرين دون أن يفكر أهلها في زيارتها ، وأعلنوا أنهم متبرئون منها لأنها خنثى .

وبعد انتهاء علاجها بالمستشفى خرجت إلى شقة خالها الذي لم يكن قد تزوج ، لكنه كان على وشك الزواج ، فإلى أين تذهب ؟ ، وحاولت أن تقنع أبويها بحاجتها لهما نفسياً قبل كل شئ ، لا ذنب لها فيما حدث لها .

مشيناها خطى كُتبت علينا ومن كُتبت عليه خُطىً مشاها

لكنهم طردوها بعد أن سخروا منها وقالوا لها : لا مكان لك بيننا لا في حياتك ولا بعد موتك ، ليس لك عندنا مدفن ، فأنت لست رجلاً ولست امرأة ، لا نعرف لك جنساً .

وذهبت للطبيب الذي يعالجها شاكية باكية ، فتطوع بالذهاب إلى أسرتها ليفهمهم الأمر لكنهم أصموا آذانهم قائلين : إنها جلبت لهم العار ولا يستطيعون بحال أن تعيش بينهم .

وعرض عليها الطبيب أن تعمل في المستشفى في التمريض بعد تدريب بسيط ، لكنّ مواجهة العاملين بالمستشفى كانت قاسية عليها ولم يتقبلوها بينهم لأنهم يعرفون حقيقتها ، وأخذوا يسخرون منها ويتغامزون عليها ، فاضطرت إلى ترك المستشفى رغم أنها كانت تقيم فيها ، في سكن الممرضات .

وهي الآن حائرة ثائرة ، أين تعيش ؟ ، كل الناس يسخرون منها ويعاملونها معاملة لا تستطيع تحملها ، يعاملون الكلب أفضل من معاملتهم لها ، بماذا تعيش ؟ وكيف تعيش ؟ .

سألها المذيع :

- ماذا كنت تفعلين لو رجع بك الزمان إلى الوراء عشر سنوات ؟ .

فقالت :

- كنت قد انتحرت !!.

رباه ، لماذا نصر على أن نحيا ظالمين أيها البشر ؟ ، لماذا ننسى أن أفضل ما يميز الإنسان على سائر الكائنات فضائله وأخلاقه وحبه لمن حوله ؟ .



لماذا لا نقتدي برسولنا صلى الله عليه وسلم الذي دعانا إلى محاسن الأخلاق فقال : " أدناكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً " ؟ .

لماذا لا نتخيل أنفسنا مكان أولئك المعذبين حتى نرحمهم من عذاباتهم ونخفف عنهم آلامهم ؟ .

إن الكثير من أهل النعم قد عرفوا اللذات كلها وأصبحت أثقل على أنفسهم من الحديث المعاد ، فلم يبق ما يعزيهم عنها إلا لذة واحدة هي لذة الإحسان .

فأحسن أيها الإنسان إلى البائسين في هذه الحياة لتجد بدعائهم لك سرور النفس وحبورها .

وليتك تبكي كلما وقع نظرك على محزون أو مصاب فتبتسم سروراً ببكائك واغتباطاً بدموعك ؛ لأن الدموع التي تنحدر على خديك في مثل هذا الموقف إنما هي سطور من نور تسجل لك في تلك الصحيفة البيضاء أنك إنسان ! .

إن اليد التي تصون الدموع أفضل من اليد التي تريق الدماء ، والتي تشرح الصدور أشرف من التي تبقر البطون ؛ فالمحسن أفضل من القائد وأشرف من المجاهد ، وبون هائل بين من يحيي الميت ومن يميت الحي .

أيها الرجل السعيد كن رحيماً ، أشعر قلبك بالرحمة ، ليكن قلبُك الرحمة بعينها .

أيها السعداء أحسنوا إلى البائسين والفقراء وامسحوا دموع الأشقياء وارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء .

***

لستِ أمي !!

كفاك ظلماً أيتها المرأة ، سامحيني ، لن أطلق عليك أمي ، فما عرفت فيك الأمومة أبداً ، وما كنت في أحضانك إلا كجارية بين يدي نخّاس جشع لئيم !! .

تزوجت بأمرك في السادسة عشرة رجلاً من أرباب مجالسك الليلة يكبرني بعشرين عاماً حين كان أبي مُغيّباً تحت أطباق الثرى.

كان كل همك الثراء والمركز والمكانة التي تليق باسم عائلتك وبعتيني وقبضت الثمن ، شقة فاخرة على النيل ، وقطعة أرض بالمريوطية ، ودخلتُ منزله أرتجف كورقة شجرة جافة ألقى بها الخريف في مهب الريح ، ووجدتني بين يدي رجل دميم الخِلقة والخُلق ، شاذ الطباع ، شديد الرعونة ، تفوح من فمه رائحة الخمر كل ليلة ، حين يعود في الفجر يترنح ويتحدث بفم معوج يناديني بأبشع الشتائم لأدفئ له فراشه .

كم بكيت وتعذبت من حياتي معه ، كم شكوتُ لك كراهيتي له ولنفسي وأنا في فراشه ، فكنت تنهرينني وتقولين لي : لك أن تكرهيه بروحك وعقلك ، لكنّ جسدك ملك له .

واستجبت لك مُكرهة فلم يكن لي مكان في نزلك ، وتركت له جسدي كخرقة بالية لا حراك فيها ولا روح ، وأنجبت ابنتي وأنا أتعذب وأكتم صراخي في نفسي حتى انهارت أعصابي وأصابني ضغط الدم والقلب وأنا في الثلاثين ، ودخلت مرحلة الشيخوخة مبكرة ، لكني لم أعد أحتمل ، ابتعدت عنه جسمانياً ، أصبحت لا أحتمل مجرد سماع صوته أو رؤيته .

وهكذا مرت سنوات عشر وأنا منقطعة عن الحديث معه وأصبح لي جناح وحدي في قصره ، وتأكد أنه قد خسرني نهائياً ، ومع ذلك يرفض طلاقي ، إلا أن أصل إلى مرحلة أكون فيها غير صالحة لغيره ! .

وهكذا أغلقت في وجهي كل أبواب الأمل في الحياة مرة أخرى وفكرت في الخلاص من حياتي ، لكن لمن أترك ابنتيّ ، إنني كل شئ بالنسبة لهما ، أصبحت محطمة وهما قد تخطتا مرحلة

الضعف ، لن أستطيع تحمل المزيد ، عليهما أن يسامحاني بعد كل ما تحملته من أجلهما ، سأترك لهما المال والمجوهرات والاسم والعائلة ، سأفر بنفسي إلى قبري ، فما عاد لي في الحياة متسع ، لقد ظلمني الناس وأمعنوا في ظلمي فلست أطيق البقاء في دنياهم أكثر من ذلك ، حتى ابنتي صارتا شابتين وانشغلتا عني بحب الحياة ،إفٍ لهذه الحياة ما أسود صورتها وأبشع مرآها !! .

وتسألني:ما العدلُ؟قلت:خـــرافةٌ لأن نيوبَ الظلم تنمو مع الطفل(*)

ومهما بكى الباكون فالجَوْرُ سيدٌ يخرُّ له وجـه العـدالةِ في ذلِ

فلا تستمع للناصحين فقولُـهم بلا سندٍ من واقع الأمـــر والفعل

***

(*) رؤية خاصة لنفسية معذبة لا تمس ميزان العدل " إن الباطل كان زهوقا "

نهاية مجنون !!

كان من عائلة ذات أمجاد وبطولات ، يشار إليها بالبنان وينتم
إليها رؤوس الأعيان ، يتمنى كل فرد في الشعب أن ينتسب إليه
ولو كخادم لهم ، وهكذا الدنيا تعطي من تحب بغير حساب أ
أسباب أو علاّت .

وكان وحيد أبويه ، ترعرع في رعاية وغنى وحنان ، لكن أم
بالغت في تدليله وترك لها أبوه الحبل على غاربه، تفعل مع ولده
ما يحلو لها فشب وهو لا يرعوي عن فعل أي شئ ، لا يمنع
رادع من اجتناب مكروه أو قبيح ، وحين يعن له فعل شئ ا
يستشر أحداً ولا يتروى ، بل هو في سيره في الحياة كقطار ا
يتوقف أمام أية حواجز إلا إذا أوقفه أحدهم ولم يكن يجرؤ علي
إيقافه أو إلجامه !! .

وقدر له الله أن يكون محامياً يدافع عن المظلومين ، فلم يكن
يقصر في عمله ، ولم يكن يغلق بابه في وجه مُدعي الحق حتى
وإن كانوا من القتلة والمجرمين والمرتشين والمروجين
للمخدرات والسموم والأسلحة فكان مكتبه يغص بكافة أنواع
البشر والقضايا .

وعاش ما قُدِّر له في قصر والديه الفخم حتى قُبضا ، ثم صار
يجلب إلى القصر صويحباته يستمتع معهن بكل ما يحلو له من
ملذات ، وفي ليالي الصيف تُنصب المجالس في حدائق القصر
ويحلو السمر والميسر في ظل الموسيقى الصاخبة ، وحين تدق
الثالثة من كل ليلة يترك الجمع ويخرج من القصر متخفياً ، لا
يدري إلي أين يذهب ، كان يحب أن يخلو بنفسه بعد أن تلعب
الخمر برأسه ، وذات ليلة تبعته إحدى صويحباته خفية تحت ستار
الظلام ، فإذا به ينطلق في طريقه حتى يصل مفترق الطرق فيمكث
منتظراً أول عابر ، وفجأة مر رجل في نحو الخامسة والأربعين ،
فاستوقفه وطلب منه أن يشعل له غليونه ثم أخرج من سترته
مسدساً فأطلق على رأسه رصاصة أسقطته قتيلاً ، نظر حوله
فاطمأن إلى أن أحداً لم يره ، فحمل الرجل وألقاه في قاع النيل ،
ثم اتخذ طريقه إلى منزله وكأن شيئاً لم يحدث !! .



لم تدر المرأة ماذا تفعل ، لو رآها لقتلها ، فمثله لا يرعوي عن فعل شئ ، فاختفت حتى مر دون أن يلحظها ، وانقطعت عن الذهاب إليه بعد ذلك ، كيف تخبر الناس أن حامي حمى العدل يقتل الناس دون جريرة أو إثم اقترفوه ؟ لابد أنه مجنون مُغرم بالدماء.

واستمر الشاب المحامي على نفس السيرة ، يقتل كل فرصة أول مار به حتى انتشرت حوادث القتل في المنطقة وامتلأ قاع النيل بالضحايا ، وحين ملّ أسلوب حياته انقطع عن العمل وحوّل حياته وعمله إلى خارج البلاد ، سافر إلى بلد أجنبي وظل هناك حتى ملّ البلد بما فيه فتحول إلى بلده مرة أخرى ، وحين وصل زاره أحد أصدقائه ، كانت المرأة قد روت له ما رأته ، فأخبره بما يعلمه وهدده بأن يخبر الشرطة إذا لم يسكته بالمال ، فماذا فعل ؟ وعده بأن يفكر في الأمر ثم دعاه إلى العشاء في اليوم التالي معه في رحلة خلوية ومن أشد العجب أن الرجل لم يخف ولم يقلق بل صدق ابتسامات صديقه ونسي ماضيه في الإجرام وانقاد له كالحمل الوديع لينفذ فيه جريمته في الليلة التالية بمنتهى البساطة.

وبعد مدة شعر المحامي بأنه في حاجة إلى بذل بعض المعروف فقد أصبح في الخمسين من عمره ولابد أن يعمل شيئاً لآخرته ، لقد أذنب كثيراً وعبث كثيراً ، لقد اعتبر قتله للأبرياء مجرد عبث وكان يبرر موقفه لنفسه بأن من قتلهم قد انتهى عمرهم ، فهو مجرد مساعد لعزرائيل ، ثم إن القتل سنة طبيعية وشريعة حياة ، لأن الطبيعة اريد أن تحتفظ بشبابها وتصون صباها ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالهدم والبناء والتخريب والتجديد والإفناء والإحياء ، وحسب الإنسان متاعاً أن يقلد الطبيعة في عملها ويحاكيها في تصرفاتها ويرتقي إلى مستواها ، إن لمشهد الدم المسفوح فتنة في النفس وسحراً .



وهذا منطق كل السفاحين القتلة ، ولكن : { وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ (٤٣) } إبراهيم .

حرك الله تلك المرأة حين اختفى صاحبها فأبلغت الشرطة عن كل ما تعرفه ، وتوجهت الشرطة لمنزله لتلقي القبض عليه ، وحين واجهوه اعترف بكل شئ قائلاً :

- أعترف بكل ما روته تلك المرأة ولا أنكره بل لقد ارتكبت جرائم قتل أخرى لا يعرفها أحد ، لقد احترفت القتل عن حب ورغبة في رؤية الدماء تسيل أمام عيني ، ما أمتع وأبدع أن يجئ أحدكم برجل شديد البأس صعب المراس فتشق صدره أو تجز رأسه فلا تلبث أن ترى الدم ينبجس منه دفاعا دافقاً ، وإذا هو كتلة مسترخية من اللحم جامدة باردة خالية من كل شعور وفكر وحاسة !! وهكذا كانت نهاية ذلك الرجل الذي عمل في ساحات العدالة سنوات وسنوات .

إن العالم من حولنا مليئ بالمجانين المستترين الذين لا يقلون حذقاً وبراعة عن هذا المجنون المخيف ، بل ربما تجد فيهم العلماء والفنانين وأهل الرحمة والحنان والوداعة ممن يرتاح المرء إليهم ويستأنس بهم وهم أهل ذلك ، إلا في أمثال تلك النوبات الإجرامية التي تعتريهم من وقت لآخر !! .

***


الجلاد !

رُوي أن الحجاج قد حبس رجلاً في حبسه ظلماً فكتب إليه رقعة فيها : " قد مضى من بؤسنا أيام ومن نعيمك أيام والموعد القيامة والسجن جهنم والحاكم لا يحتاج إلى بينة " .

ستعلم يا نؤوم إذا التقينا	غداً عند الإله من الظلوم
اما والله إن الظلم لـؤم	ومازال الظلوم هو الملوم
سينقطع التلذذ عن اناس	اداموه وينقطع النعيم
إلى ديان يوم الدين نمضي	وعند الله تجتمع الخصوم

ومر رجل برجل قد صلبه الحجاج فقال :

- يا رب إن حلمك على الظالمين قد أضر بالمظلومين فنام تلك الليلة فرأى في منامه أن القيامة قد قامت وكأنه قد دخل الجنة فرأى ذلك المصلوب في أعلى عليين وإذا مناد ينادي : " حلمي على الظالمين أحل المظلومين في أعلى عليين ".

ودخل أنس بن مالك على الحجاج بن يوسف فلما وقف بين يديه قال له : إيه إيه يا أنيس ، يوم لك مع علي ، ويوم لك مع ابن الزبير ويوم لك مع ابن الأشعث ، والله لأستأصلنك كما تستأصل الشاة ، ولأدمغنك كما تدمغ الصمغة [١] .

فقال أنس : إياي يعني الأمير أصلحه الله ؟ .

قال : إياك أعني صك الله سمعك .

قال أنس : إنا لله وإنا إليه راجعون ، والله لولا الصبية الصغار ما باليت أي قتلة قتلتُ ولا أي ميتة مت .

ثم خرج من عند الحجاج فكتب إلى أبي عبد الملك بن مروان يخبره بما قال له الحجاج ، فلما قرأ عبد الملك كتاب أنس استشاط غضباً ، وتعاظم ذلك من الحجاج وبعث إليه يقول : "وثبتَ على رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا فلم تقبل له إحسانه ولم تتجاوز له عن إساءته جرأة منك على الرب عز وجل واستخفافاً منك بالعهد ، والله لو أن اليهود والنصارى

رأت رجلاً خدم عُزير من عزرى ، وعيسى بن مريم لعظمته وشرفته وأكرمته وأحبته ، بل لو رأوا من خدم حمار العزير أو خدم حواري المسيح لعظموه وأكرموه ، فكيف وهذا أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثماني سنين ، يطلعه على سره ويشاوره فى أمره ، ثم هو مع هذا بقية من بقايا أصحابه ، فإذا قرأت كتابي هذا فكن أطوع له من خُفه ونعله ، وإلا أتاك مني سهم بكل حتف قاض، ولكل نبأ مستقر وسوف تعلمون .

هكذا كان سفاح ثقيف نقمة على أهل العراق وكابوساً مخيفاً جثم على صدورهم عشرين عاماً ، سمعت السيدة أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها رسول صلى الله عليه وسلم يقول : "يخرج من ثقيف كذابان الآخر منهما شر من الأول ، وهذا المبير" .[1]

ثم مدت يدها حتى كادت سبابتها أن تفقأ عين الحجاج وقالت : أما الكذاب فقد رأيناه [2] وأما المبير [3] فأنت هو يا حجاج .

قال التاريخ : أحصوا ما قتل الحجاج صبراً - حبساً - فبلغ مائة ألف وعشرين ألفا ، وأطلق أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك في غداة واحدة أحد وثمانين ألف أسير كانوا في سجن الحجاج منهم ثلاثون ألف امرأة .

وعرضت السجون بعد الحجاج فوجدوا فيها ثلاثة وثلاثين ألفاً لم يجب على أحد منهم قطع يد أو رجل ، ولا صلب وُلد في ليلة عاصفة لم تر مثلها ثقيف ، ووُلد مشوَهاً لا دُبر له ، ورضع دم جدي ثم دم حية سوداء ، ورأت أمه في منامها أنها ولدت كلباً عقوراً يلغ في الدماء ، وقال له أبوه : خلقك الله شقياً ، وذلك حين سمعه يقول على أحد الصالحين :"والله ما على أمير المؤمنين أضر من هذا وأمثاله ، والله لو خلص لي من الأمر شئ لأضر بن عنق هذا وأمثاله ".

قال له أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان يوماً : "ما من أحد إلا وهو يعرف عيب نفسه ، فصف عيب نفسك ".

---

[1] رواه الحاكم في المستدرك .
[2] هو ابن أبي عبيد المختار مدعي النبوة .
[3] المبير : السفاح .

فقال الحجاج : اعفني يا أمير المؤمنين .
فأبى أمير المؤمنين إلا أن يصف نفسه ، فقال :
- أنا لجوج حسود حقود .
فقال عبد الملك :
- ما في الشيطان شر مما ذكرت .
أما أشهر حادثة وقع فيها الطاغية فكانت حين تجرأ على قتل سيد من سادات التابعين هو سعيد بن جبير رحمه الله ، ذلك الرجل الذي كان من العباد الزهاد القانتين الذين يقومون الليل ويصومون النهار ، يختم القرآن كل ليلتين ، ويخرج من الكوفة كل سنة مرتين : مرة للعمرة ومرة للحج ، ولا يتحدث إلى أحد بين صلاة الفجر وطلوع الشمس لأنه مستغرق في ذكر الله لا يشغله من أمر الدنيا شاغل .
وإلى جانب ذلك كان ثائراً على الظلم ناقماً على الحجاج خارجاً عليه حتى إنه خاض موقعة (دير الجماجم) التي نشبت بين جيش الحجاج وجماعة عبد الرحمن بن الأشعث مما جعل الحجاج يميز غيظاً منه ، فبعث إلى والي مكة أن يرسله إلى العراق مكبلاً بالأغلال ليقتله شر قتلة ، وعلم أصدقاء سعيد بالخبر فحذروه ليهرب لكنه رفض وقال :
- إني لأستحي من الله أن أهرب من القتل .
وفي الطريق إلى العراق قال له حارسه :
- والله إني لأعلم أنك ذاهب إلى من يقتلك فاذهب إلى أي طريق شئت ! .
فالتفت إليه سعيد وقال :
- يرحمك الله يا أخي ، إنك إن أطلقت سراحي فيسقتلك الحجاج ولو كنت أريد الفرار من الموت لفررت قبل أن يقبض عليّ ولكنّ المقاتل لا يفر من الموت ! .
ووصل سعيد إلى الحجاج والشموخ يطل من عينيه والعزة تضئ من جبينه وحب الشهادة يملأ قلبه ووجدانه .
قال له الحجاج :

- ما اسمك ؟ .
فرد عليه ورائحة العزة تفوح من كلماته :
- سعيد بن جبير .
فقال له المتجبر في غطرسة :
- بل أنت شقي بن كسير .
فقال سعيد :
- لست شقياً لكن الشقي من لا يعلم قدر نفسه .
فقال الحجاج :
- والله لأبدلنك من دنياك ناراً تتلظى .
فقال له سعيد :
- لو علمتُ أنك تملك جهنم لما اتخذت إلهاً غيرك.
فقال الحجاج :
- والله لأقطعنك قِطعاً وأفرقن أعضاءك عضوا عضوا .
فرد عليه سعيد :
- إذن تفسد عليّ دنياي وأفسد عليك آخرتك والقصاص أمامك .
فصاح الحجاج في غضب شديد :
- اذهبوا به فاضربوا عنقه .
فقال له سعيد :
- إني أشهدك أني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أستحفظك بها حتى ألقاك يوم القيامة .
فلما ذهبوا بسعيد لقتله ضحك ، فقال له الحجاج :
- لم تضحك ؟.
قال :
- من جرأتك على الله وحلم الله عليك ! .
وذُبح الشهيد الضاحك في شعبان سنة خمس وتسعين من الهجرة بمدينة واسط ، ولما علم الحسن البصري رضي الله عنه بمقتله قال : "اللهم أنت على فاسق ثقيف ، اللهم يا قاصم الجبابرة اقصم الحجاج ، والله لو أن ما بين المشرق والمغرب

اشتركوا في قتل سعيد لكبهم الله عز وجل في النار ، اللهم أمتا فأذهب عنا سنته وأعماله الخبيثة ".

وانتقم الله من جبار العراق واستجاب دعاء المظلومين والصالحين فيه ، فقبل أن تهدأ ثورة الناس لقتل سعيد بن جبير أصيب الحجاج بمرض غريب لم يمهله إلا بضعة أيام ثم اختارته المنية ، ذلك الطاغية مات بعد أن قتل أخيار الناس .

رُوي أنه افتخر فقال على المنبر :

- أنا قاتل العبادلة : عبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن مطيع وعبد الله بن صفوان ، وعبد الله بن الجارود ، وعبد الله بن حكيم وعبد الله بن أنس (أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم) .

مر يوماً على أهل السجون يستغيثون يقولون : قتلنا الحر ، فرد عليهم قائلا :

- { قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (١٠٨) } المؤمنون .

وحين مَرِضَ مرض الوفاة ، سأله أبو المنذر يعلي بن مَخلد فقال :

- كيف ترى ما بك يا حجاج من غمرات الموت وسكراته ؟ .

فقال :

- غماً شديداً ، وجهداً جهيداً ، وألماً عظيماً ، ونزعاً أليماً ، وسفراً طويلاً وزاداً قليلاً ، فويلي ويلي إن لم يرحمني الجبار .

فقال له يعلي :

- يا حجاج ، إنما يرحم الله من عباده الرحماء الكرماء ، أشهد أنك قرين فرعون وهامان لسوء سيرتك وترك ملتك وتنكبك عن قصد الحق وسنن المحجة وآثار الصالحين ، قتلت صالحي الناس فأفنيتهم وسلبت حقوق الناس فظلمتهم وأطعت خلفاء بني أمية في معصية الخالق وهرقت الدماء وهتكت الأستار وسُسْت سياسة متكبر جبار والويل لك من الواحد القهار .

ورؤي في المنام بعد الوفاة ، رآه غير واحد من الصالحين منهم الحسن البصري فقال له :

ـ أنت الحجاج ؟ .
قال :
ـ أنا الحجاج .
قال الحسن :
ـ ما فعل الله بك ؟ .
قال :
ـ قُتلتُ بكل قتيل قتلة ثم عُزلت مع الموحدين ! .
وحين سئل ابراهيم النخعي عنه وعن الجبابرة أمثاله قال : أليس الله يقول : { وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۚ أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨) } هود .
نسأل الله العافية من الظلم والظالمين .
***

المؤلفة في سطور

سمية عبد الحليم عويس

ـــ مواليد ١٣يناير١٩٧٢م الكويت .

ـــ تخرجت من كلية الآداب جامعة عين شمس قسم اللغة العربية وآدابها سنة ٩٣م .

ـــ عضو رابطة الأدب الإسلامى .

ـــ كاتبة بمركز الإعلام العربي .

أهم مؤلفاتها :

ـــ أمهات المؤمنين العشرة المبشرون بالجنة ـــ دار العبيكان بالسعودية .

ـــ هكذا عرفت الله (رواية) .

ـــ صراخ الصمت (مجموعة قصصية) .

ـــ قطار الأيام (مجموعة قصصية) .

ـــ في الصيف السابع والثلاثين (خواطر) دار الكلمة بالقاهرة .

ـــ لقاء النفوس (فلسفة حياة) دار البشير بالقاهرة وطنطا .

ـــ في أودية الحرمان (مجموعة قصصية) .

ـــ في القفص الذهبي ، صولات وجولات .

ـــ حدثنى الإمام الشافعى ـــ دار المعارف .

ـــ كيف أخرج من العاصفة بسلام ـــ مركز الإعلام العربى .

ـــ مصطفى محمود ، مفكر حائر يباشر الحياة ـــ دار بوب بروف .

ـــ قلوب ظامئة (ثلاث مجموعات قصصية) ـــ دار بوب بروف .

ـــ الجنة الموعودة (مجموعتان قصصيتان) ـــ دار بوب بروف .

ـــ رحلة في ذاكرة الأمة (مواقف من التاريخ الإسلامي) ـــ تحت الطبع .

ـــ صور حضارية من تراثنا العربي ـــ تحت الطبع .

ـــ لحظات في حب الله (تصوف) ـــ تحت الطبع .

ـــ أطواق النجاة (تنمية بشرية) ـــ تحت الطبع .

ـــ في اللحظات الأخيرة (حسن وسوء الخاتمة) ـــ تحت الطبع .

ـــ حديث العقول (مقالات) ـــ تحت الطبع .

للتواصل :

somyahaleem@yahoo.com

الموقع الإلكتروني :

www.khodwhat.com

***

الفهرس	الصفحة



Pop professional press

غريب فى المدينة

ما أصعب الغربة فى الوطن وما أقساها حين يشعر بها الإنسان.. وهو بين أهله وذويه وأحبابه وأصدقائه .. إنها حالة من الانكسار التى يعيشها معظم الأبطال فى هذه المجموعة القصصية.. وكأنهم جميعا على جناح السفر .. يعزفون سيمفونيات العذاب بوجوه من صلصال وأقدام تشق خطواتها فى الفراغ .. فلا سبيل إلا الهاوية ولا مصير إلا الضياع .

هذه الحالة ترسمها لنا المبدعة سمية عبد الحليم عويس بأنامل مراوغة.. فهى تارة تفتح شرفة نطل منها على فضاء من الأمل وتدعونا إلى التمسك بقيم الحق والخير والجمال فى حياتنا مهما ك[cut off]
أنيابها وقيدتنا بالضغوط.. وتارة أخ[cut off]
هالات المحو فى حرابنا المصوبة نحو الشر[cut off]
غيمات من الحزن على وجه السماء .



pop professional press